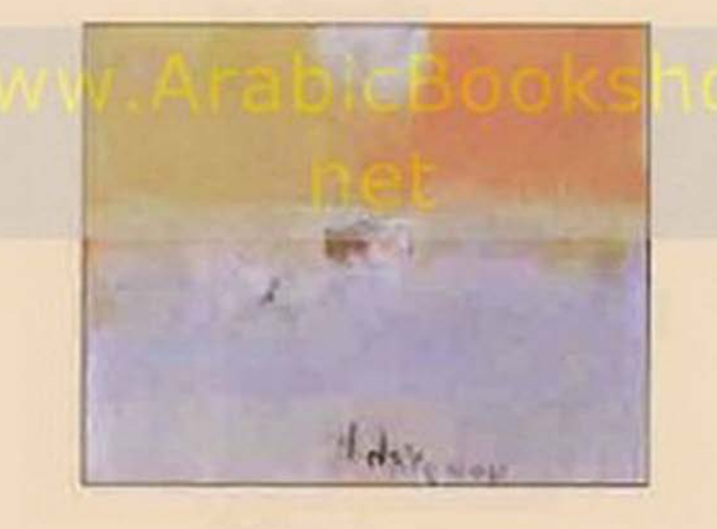
ماجد سليمان





عينٌ حَمِئة..



رواية

طوى

ماجد سليمان

عَينٌ حَمِئة..

رواية



Book: Ayn Hameea

الكتاب: عَينٌ حَمِئة ـ رواية

Author: Majed Sulaiman

المؤلف: ماجد سليمان

Cover Plate: Ali Rashid

لوحة الغلاف: علي رشيد

First Edition: 2011

الطبعة الأولى ٢٠١١



طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Email: tuwa@london.com

Tel: 009662108111 - 00966505481425

التوزيع: **منشورات الجمل**

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الشخصيات والأحداث في هذه الرواية أغلبها من خَلق الخيال وبعض الأماكن هي من خَلق الخيال أيضاً، ولست أول روائيٍّ يُوجِدُ أماكن يملكها، ولن أكون الأخير، فأيّ تشابه بين شخصيات أو أحداث الرواية مع الواقع فهو تشابه غير مقصود.

❊ ❊ ❊

كتاباتي.. حَمَامَات الروح، وَدَوْحُ المغنّين، وحروفٌ من حنين، ازدحمت في بيداء القلب، لتزْفُرَ مع أنفاس الوَجَع والشوق إلى ما قد غَابَ خَلْفَ قُضبان الحياة المذابَةِ في ماء اِلزمان الفائت.

❊ ❊ ❊

عنوان الكاتب:

q44qqq@gmail.com

q44qq@hotmail.com

.. (إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرا)..

سورة الكهف، الآية ٦٧

أَمَّا قبل:

أَجلسُ على مكتبي لأغرس قلبي بين سَبَّابتي وإبهامي، وأجرح به ظهر الورقة التي بشَّت من جموع الأفكار الواقفة عليها، لأكتب:

ما أمرَّ خُبز اليتامى، وما أفجع اليُتم المعصور في قدح الظُلم الأسَريّ والاجتماعي، وما أقسى غِصَّة الموجوع حين يُلقِمُهُ الأقارب أَكبَرَ حَجرٍ ينتقونه له.

هي كَقَشَّة الذنب العظيمة في مجتمعٍ يرى في نفسه أنه أفضل المجتمعات تَدَيُّناً ومحافظة.

هكذا عرفناك يا مجتمع الآراء المفروضة رُغماً عنَّا، حين تكبِّلُ أفواهنا عن المناقشة أحياناً، وينبحُ في قفانا كُلّ كبيرٍ لا يخاف الله فينا.

سألت نفسي على مَضض:

ـ لماذا يُقدِّم هذا المجتمع أبناءه لأفواه الهموم المصْفَرَّة؟ ولماذا يُراهن على أنه أتقى وأنقى المجتمعات، بينما تستمتع بالسعيِّ في جسده جرثومة المعصية؟!

أزفر بشدَّة في نفسي:

ـ تبّاً لك يا مجتمعاً يقاضينا بما ليس هو من فعلنا.

زفرتُ للمرة الثانية:

ـ عُذراً مجتمعي على كل الخير الذي يملأ جِرَارك، إلا أنَّك لم تُصادر أباريق وكؤوس العابثين في حياة أبنائك وبناتك.

نثرت رماد الموضوع على طاولتي، وأَخَذَت أصابعي تَلْعق ذاك الرماد بحزنٍ عميق، وتحادثه بأناملها المجهدة.. أتساءل.. وأتساءل.. وأرجم بحجر السؤال رأس الحيرة حَتَّى ينصدع، فكم فتىً وفتاة قُدِّموا جُثَّةً لأكفان الظلم والغضب.

نهضت من مكتبي مُتّجهاً إلى النافذة، دفعت بشبَّاكها نحو الشارع المطلَّة عليه، فإذا بهواء الرياض يُداهمني كجمعٍ من لصوص الليل.

(١)

صَـوتٌ تـهُـدهِـدُهُ الـطـفـولـةُ أَم تُـبَـلِّـلـهُ الـقُـبَـلْ
ورَغـيـفُ حَـرفـي سَـاخـنٌ وَجِـيـاعُ عـشـقـي تَـقـتـتِـلْ
شـمـسَ الـمـآتـم رَمِّـمـي قـلـبـاً تـآكـلَ صَـمـتـهُ
يا مَنْ مررتِ بحرف موتي فوق سطرٍ من زجلْ
هاتي نشيد الوصل أو في عتمة البُعد امكثي
فحكايتي قد مُزِّقت من تحت أثواب الأملْ

ماجد سليمان

الرياض.. بَوَّابة حين تنفتح على مصراعيها، تَمُجُّ لنا مآتم ومظالم يَتَامَاهَا ومُعذِّبيها.

الرياض.. سيرةٌ طويلةٌ لمن ألهبتهم سياط الأقارب وأبناء العمومة.

هناك في أحد أحياء جنوبها يقع بيتنا المحشور في آخر زقاق الحي الضيّق الذي ترتع فيه الحشرات، وتَرِدُ إليه الزواحف، وتُلْقى على قارعته الخرداوات، ومزابل أهل الحي المجاور عَلاوة على تَكَبِّر سيَّارة البلدية التي من واجبها نقل النفايات عن زقاقنا المنسيّ.

بيتنا.. جُدرٌ تتألم كل صباحٍ من أحزان أُمّي المنكفئة على أماكن كثيرة من مساحته.

بيتنا.. صَمْتُ أُمّي المتآكل، ومظالم كثيرة لم يعد لبيتنا الحزين حلق صبرٍ على ابتلاعها.. فقد غَصَّ بها واسودَّت جدرانه المتصدِّعة من وبل بكائها كل يوم.

ثلاث سنوات من اقترانها بزوجها.. ثلاث سنوات أزهق خلالها آخر نفسٍ لكرامتها.

ثلاث سنوات.. ما ألذَّ الظلم على قلبه، فأوقاتنا يمضغها الأسى، وحاجاتنا لم نستطع إنقاذها من فَكِّ الحرمان.

آهٍ ما أقسى الحرمان.. لقد كَبُرَت أمّي في عامها (الواحد) عَشْر مَرَّات، بل أكثر من علقم الحياة معه.. تَغُصُّ كل يومٍ بوجعها وحُرقتها.. تجعّدت بشرتها الطريّة.. تَرَمَّدَ أملها.. تبعثر رجاؤها إلا من الله..

زوج أُمِّي لا شيء بين أضلاعه الجليلة غير الحقد والبغيضة المتراكمة فوق قلبه المتحجّر، لا شيء على لسانه الغليظ غير البذاءة واللعان، وترديد الشتائم لأُمّي، ولا شيء على كفَّيه الكبيرتين غير البطش والقسوة، فحصان صبرها معه لا يُشقُّ له غبار، هذا ما رأيت أنا وأختي، وهذا ما أفجعنا وأوجعنا في الوقت نفسه.

* * *

في ليلةٍ حَمَلت في رحمها الفجيعة، أغمد ظُلمه في خاصرة أُمِّي، أيقنت لحظتذاك أن الظلم بحرٌ هادرٌ سيكتسح تضاريس حياتي، وَقَفَ أمامي كالطود العظيم، له لحية كثَّة مختلطٌ سوادها ببياضها، وجبهةٌ عريضةٌ كثيرة التجاعيد ومنكبان عريضان مخيفان، وطولٌ بالكاد يقف أمامه خصومه وأضداده، أخذ يحملق نظره فيَّ فقذفت وجهي أرضاً، وبدأت فَكّي تراقص أسناني رعباً ورهبة، ثم أدار وجهه العريض إلى أختي فتكوَّرت على نفسها كقنفذٍ أَحسَّ بسبعٍ يترقَّبه، أخذ يحدِّق في وجهينا البريئين وكأن عينيه دبابيس تَدُّقُ سُمرة وجهينا، لحظتذاك تَمَسَّكت أُمّي بطرف ثوبه وأخذت تجرُّه لأسفل وهي تَسعُلُ بشدِّة وتقول:

أنا امرأة ضعيفة، لا تكن ظالماً.

ألقى عليها نظرته الحادَّة التي لو كانت شفرة سيفٍ هنديّ لقَسَمَت وجهها إلى قسمين، ثم أمسك بجديلتها الطويلة وشدّها إلى أعلى لترتفع أُمّي ككتلة لحمٍ رفعها لَحَّامٌ ماهر، ثم بَصَقَ في وجهها البدريّ وقال:

ما أنتِ إلا حذاء ألبسه ثم أرميه قبل أن يبلى.

كان كلامه سهام حقدٍ زُجّت في نحرها، فأطلقها من يده الضخمة كما يطلق الصياد أرنبة من يده، نَهَضت ممزَّقة الثياب مسلوبة الكرامة.. محطَّمة المشاعر.. مبعثرة الروح.. مدهونةً

بسواد قلب الرجل العربي المكابر، وَقَفَت على باب غرفتها المتصدِّعة، أخذت تمور في بحر دمعها وحزنها، التفتت إلينا ورأتنا محشورين في زاوية المنزل كقطّين مريضين، وأخذت تهذي بكلامٍ حاولت أن أسمعه ولكني لم أستطع ذلك، فقد كانت شفتها متورِّمة بعض الشيء وإحدى ثناياها تزخر بدمها الطاهر.. لحظتذاك كان زوجها قد خرج تاركاً خلفه ضياع أُسرة قد أقرَّ وأقدم على وقوعه، فقد همَّش كل اعتباراتنا الأسرية.

ما زالت فرائصي تتراعد كما هو الحال عند أختي التي أجهشت ببكاءٍ مرير.

بعد أن ألقت أُمّي بجسدها المتهدّم على فراشها الرثِّ المملوء بالتراب والقشور اليابسة، اقتربنا منها فأخذتنا بين ذراعيها كجروين جائعين، لقد كان لها أنين لا ينقطع، وتأوُّهات مُسكرة وبكاءٌ مشحونٌ بِغَصَّةٍ بالغة.

أخذت أقرأ الجور الذي خَطَّه على وجهها.. جروحٌ غُمقت كأخاديد طويلة، ورضوضٌ وُزِّعت على وجنتيها. أخذت أتأمل كحل عينيها الذي شارك دمعها السبَّاق على خَدَّيها، فقلت في رعب:

أُمّي، لماذا فعل عَمّي كل هذا؟!

....

إنه مخيف . .

. . . .

ثم عادت لمجاهدة أوجاعها دون أن تنبس بكلمة .

ليست أُمّي سوى واحدة من اللاتي عُجنَّ تحت أقدام هؤلاء الجبابرة، الذين يرون أن المرأة ليست إلا وسيلة لإفراغ الشهوة، وخادمة تكنس بيوتهم وترتّبها .

وبعد أيام، وهناك بالضبط في محكمة الرياض ينفصل عنها شرعياً .

هناك في زقاق الحي الذي كنا مقبورين فيه . . كانت أُمّي زغرودة على شفاه نساء الحي اللاتي لا يرغبنها أبداً، وفي نفس الوقت كانت هناك زغرودة أيضاً تَحُطُّ على فمها لخلاصها من كهوفه، ومن سياط حقده .

أخرج القاضي ورقة كُتِبَ عليها بحبرٍ أزرق مُتقطّع (مُطلَّقة) حَتَّى طلاقها كُتب بحبرٍ ضئيلٍ كجسدها . حَتَّى في طلاقها لم يحترموا ورقتها، فقد كتبوها بحبر الاستحقار والانتقاص . يا لفرحة أُمّي أصبحت مُطلَّقة، وعادت إلى أهلها بلا أغراض لأنها لم تكن تملك أبسط الأغراض .

«أُمُّك مُطلَّقة» . . هكذا كان ينعتني الصِبْيَة الذين في سِنّي .

«يا ابن المطلَّقة» . . هكذا كانوا يَتفوَّهون عَلَيَّ .

أصبحت ألوك حزني بعد ذهاب أُمّي إلى أهلها، لقد مدَّت لنا فنجال الرحيل باكراً ونحن في بحر سنواتنا العشر أو أكبر قليلاً.. تسابقت السنون، والحزن يلفحنا كل ليلة..أُمّي.. وجه الحقيقة النحيل.. قنديل الصبر الخافت، لقد اغتسلت من كل جروح حياتها مع زوجها وانسلخت تماماً من كل شيء يُذكّرها به، فقد نَزَعَت ثياب رائحته ولون أيامه، وَقَذَفَت بها في سَلَّة النسيان.

تدافعت الأيام بالأكتاف، وانهمرت الليالي كشلالات التلال، وها أنا اليوم أقف عازماً على مغادرة حارتنا العتيقة، موجِّهاً نفسي إلى حيث أُمّي وأخوالي، فكم قلت في نفسي مراراً:

أُمّي.. ليس لي أن أشدَّ من عزيمة النسيان وأنساكِ

التفتُّ إلى حارتنا بعد أن ابتعدت عنها بعض الشيء لأُوقف إحدى سَيّارات الأجرة، فصحت بأعلى صوتي الأجرب منتقماً:

بؤ بذنبك يا مجتمعاً يركل النبلاء ويفرش الورد للمنافقين.. يا مجتمعاً رَحَّبَ بالخزي وَوَسَّد الظالم ريش النعام.. يا مجتمعاً ألقى بابنة المعروف في مَعَرَّة الجحود.

أخذني سائق الأجرة في قلب الصحراء على الطريق المتّجهة إلى مبتغاي، فالنهار ما زال رمحاً يخترق السماء، ولا تزال الطريق تَتَوعّدني بالمكائد والمفاجآت السارَّة لها.. الصيف يجلد بسوطه الحار ظهر البيداء الطويلة، فقد فَلَّ ثلاثة أرباع حرارته حَتّى الآن والربع الباقي ليس بالبعيد.

لم يكن على جسدي الهشّ غير ثَوبٍ تملأه الرقع الملوَّنة التي فُقد نصفها وثُقب النصف الآخر، وهو ثوبٌ ليس بالمخبون كما يجب، وطوله لم يتعدى ربع ساقي النحيلة السمراء التي تَوَزَّعت عليها الجروح والكدمات المتفاوتة في الحجم والشكل، فما زالت الروح ممتلئة بلهاثي وظمأي القاصم لرؤية أُمّي.

قطع بي سائق الأجرة مسافة ليست بالسهلة تاركاً خلفه الرياض.. لتذوب في الغياب أو لتذهب في ركب البعاد.

دَنَت الشمس من غيابها قليلاً.. نسنست برودة المساء فأخذ قلبي يخفق ويرتدُّ هَلَعَاً من مجيء الظلام؛ إن النهار سيكون مقبوضاً عليه من رقبته بعد سويعات ليست بالبعيدة، بدأت أَحُثُّ السائق على الإسراع ليقطع أكثر من نصف المسافة على الأقل.. بعد ساعتين وَخَزَت شوكة الجوع معدتي الفارغة الملتصقة أسفل ضلوعي الهزيلة، وبدأت عروقي تستجيب لحرقة الظمأ فقلت في نفسي:

سأنحر هموم المسافة بلا زاد ولا ماء؟

ثقلت حركتي، وبدأت رأسي تدور واستسلمت لإغفاءة ثقيلة.

***

حين وَصلتُ إلى أخوالي أخبروني بوفاة أُمّي فجأة!!.. لم أكن مستعداً لتلَقّي الخبر.. ارتخت يداي وسقطتا في حضني.. بَلَعتُ

ريقي مَرَّتين متتاليتين. . أحسَّوا بعَبرةٍ تركل حنجرتي. . فبالكاد خَرَجَ السؤال من حلقي:

كيف ماتت؟!

ثم وضعت رأسي بين كفيّ، وأخذت نَفَساً سريعاً، وأعدت السؤال:

كيف ماتت؟!

لم يُجب أحد من الجالسين حولي. . مسحت وجهي بباطن يدي اليمنى. . فالخبر فَتَّت قلبي ودهس أحشائي. . أخذت ألمي، وحطام أملي، وبقايا يأسي معي، وانتقلت إلى غرفة مجاورة لهم لأريق ما تَبَقَّى لَديَّ من حزنٍ على انفراد، وبعد أن أفرغت كل ما بي من وجعٍ سليط، أضجعت جسدي على اليمين فانتهت عيناي إلى مرافئ النوم.

قُبيل العصر افترشت حزني داخل المقبرة، كان عواء الريح يتسلَّل إلى سمعي بهوادة. . لم أكن شارد البال إلا قليلا، بصري ينكفئ على النصائب والقبور التي دَثَّرها الزمان بالقِدم. . لم أكن صاحب دينٍ قويٍّ، فقد كانت ذنوبي تسرح بين أضلعي التي أحاول هذه اللحظة أن أُلوِّنها بتوبتي ونسياني لما مضى من آثامي التي ما بَرِحَت بيداء قلبي الطيب. كنت أتأمل القبور بلا استثناء. . الكبيرة والصغيرة، كان المنظر يخلخل روحي العاصية، هذه المقبرة

ابتلعت أجساد أناس كُثُر، مَن أعرفهم ومَن لا أعرفهم، فقد قَضَمَت دوابُّ الأرض ودودُها كلَّ شبرٍ من تلك الأجساد.

وقفت.. وأخذت أنفض بيديَّ السمراوين ثوبي المرقَّع، لم أشأ مغادرة المقبرة إلا مجاهداً نفسي على ضرورة المغادرة قبل غروب الشمس، فالشمس الآن بدأت تتوارى خلف الأرض.

اتجهت صوب باب المقبرة ومن حولي القبور تزفر، هذا ما كنت أحسُّ به، يصلني نَفَسُهَا الحار.. يلذع باطن أقدامي اليابسة.. لم أُبدِ انزعاجاً فقد أخذت أسير على رِسْلي فباب المقبرة ما زال بيني وبينه مسافة متوسّطة البُعد، نظري صار متخشِّباً إلى درفة الباب اليمنى، ما زالت الأنفاس الحارة التي تُصدرها تلك القبور تَتَحرَّش بباطن أقدامي، إنني في هذه اللحظة لا أُكذّب نفسي أبداً، فالزفير يتصاعد.. يتصاعد.. القبور التي أمثل سائراً من بينها، أُرَاقبها بحذر، فبصري بدأ يميع شيئاً فشيئاً، يداي اللتان أودعتهما في مخابئ ثوبي الخَلِق شَعَرتُ بالتَنَمّل يلتهمها رويداً.. رويداً، المسافة قَصُرَت تقريباً، فباب المقبرة أصبح وشيكاً من صولي، شفتاي تنبضان بظمأ أبيض مالح، الزفير بدأ يَتَقَلّصُ تدريجيّاً، قلبي هو العضو الوحيد الذي لم تتسارع نبضاته خوفاً.. لا أدري لماذا؟!.. لعلَّ أكوام الحزن المتكدَّسة بين عروقه أماتت الروع الذي يشطفه في كل مرّة.

لم يكن يرتع في سمعي غير عواء الريح التي باغتت المقبرة لحظة طَعَنْتُ تراب المقبرة بركبتيّ الصلبتين، فباب المقبرة أخذت هذه الريح تَرُدُّهُ قليلاً. . قليلاً، قلبي الذي كان يفاخر بحزنه الذي كان مضادّاً للمخاوف التي تنبح في طريقه الضيِّق، أخذ يأكله الخفقان المتتابع.

دِرفة الباب اليمنى تقترب من الدرفة اليسرى لتُشَكِّلان انغلاق الباب، وأنا على وشك الوصول. . الزفير بدأ يتصاعد أكثر من ذي قبل، والتنمّل ارتداه جسدي المبريّ. . ليس إلا أقل من اللحظة حَتّى انغلقت الدرفتان، تلك الدرفتان الحديديتان المطليتان بدهانٍ رصاصي اللون تنتصف أعلاها فتحتان مربعتان نشب في إحداهما غراب لونه كلون قلوب الحاقدين، الجاحدين لكل فضلٍ والمتكبِّرين على كل فقير وضعيف.

الوقت ينزع رداء الضوء الضئيل الذي لحق بما تَبَقَّى من النهار الذي اختبأ تحت أثواب الغروب، فالآن لا نهار يبصرني مذعوراً داخل أسوار المقبرة، ما أفعل؟!. . أأجالس الأموات، أم أربت على قبورٍ آلمها الزفير؟!.

توارت النصائب الطينيّة خلف غشاء الظلام الذي خِيطَ على زوايا المكان، ومن بين أثواب الظلام أتاني صوت صائحٍ ارتطم دويُّه في فقرات ظهري. . التفتُّ له وهو يقول:

حَلَّ الظلام يا فتى.

لا أُصدِّقُ ما أسمع وأرى.. إنه حارس المقبرة، فتح الباب، وقال لي بلهجة غاضبة:

هيا أخرج.. الزيارة ليلاً لا تصلح لأحد.

ظللت ساكتاً وكأن لساني عُقِدَ في فمي، فلم أستطع أن ألفظ حرفاً ساكناً.. ثم ارتفع صوته مَرَّةً أخرى:

هل أُصِبْتَ بالصمم؟.. الدنيا ظلامٌ مريع.. هَيَّا أخرج.

أقبلت إليه، وحين وصلته صافحته بهدوء دون أن أُسَلِّم عليه فقال:

أَبَشرٌ أنت؟!.. ظننت أنك من الجن حين تجاهلتَ ندائي.

كان هذا الحارس ضخم الجثّة، له لحية ليست بالمشذَّبة، وشارب لم يحسن إليه بالمقص أبداً، له بطنٌ زائدة بعض الشيء، أزرار ثوبه مقلوعة إلا واحداً استقرَّ في مكانه أسفل الأزرار.. قال لي بفمٍ ممتلئ بجمل العتاب:

أأصمٌ أنت؟!

....

أهناك عاقل يبقى في المقبرة إلى حلول الظلام؟!

....

أخافه صمتي بعض الشيء. ضغط بكفِّه الغليظة على كفِّي وقال:

اذهب إلى أهلك واحذر هذه العادة.

هززت رأسي طائعاً، فحدَّق قليلاً في إجابتي الصامتة وأطلق يدي من يده. نظرت في كفِّي المتعرِّقة من أثر المصافحة الطويلة.. ثم عدت أدراجي.

(٢)

مُوري ببحر الدمع يا مَن لا يُضَاجعُها الكَرَى
ثم انكأي جُرحي على معزوفةٍ لم تكتملْ
وتناثري من بين أخشاب التوابيت التي
جَمَعت بظلمتها تباريح الجنائز في عَجَلْ
صَوتي عُواءٌ حَائرٌ يمتدُّ في بيدِ البِلى
فأنا وريثٌ لليباسِ بكل يأسٍ أغتسلْ

ماجد سليمان

«لا دفء بعد اليوم». .

بهذه العبارة كنت أجلد نفسي دائماً، لا مَفَرَّ من القَدَر، فأُمّي لم يهبها الموت لحظةً واحدةً للوداع، أُحسُّ أنني مُقتلعٌ من الأرض ومُعلَّقٌ على هاوية الحياة. . إنها لعنة الرحيل. . كأنني جالسٌ على ضفَّة الموت، فلم أعد أرى في سمائي نطفة نجم أبدا. . لا دفء الأمومة، ولا دفء المحبوبة، تلاشى كلاهما عن طريقي، ولم يتركا لي سراباً أتصبَّرُ به على الأقل.

«نورانيّة» . . آهٍ من النار التي بين أصابعها، إنها الرغبة الآثمة . . يا كم غيَّرت خرائط روحي بحبِّها.

وقتٌ طويلٌ أراقب العمر الذي يتناثر في جسدها، إنها كتاب الهوى وصفحات الغرام النديّة. لم تكن ككل النساء، لقد أيتمتني هي أيضاً، أيتمتني بفراقها، بعد أن تركت سهمها المشتعل ماكثاً بين ضلعيّ. . لم أنتظر منها صدوداً بقدر ما اشتعلت لموعد لقائها المائيّ.

عرفتها بعد وفاة أُمّي بسبع سنوات تقريباً، عرفتها والعشق يخرق جدران العزلة، عرفتها وأنا مُحمَّلٌ بأتعاسي ورغباتي المحرومة. . وفارقتها وأنا لم أُنْزِلْ عن ظهر صبري صندوقاً واحداً من صناديق عذابي وحرماني.

أبكي كبكاء الأرض الظمأى، لأن بي ذاتاً مُعذَّبة.

«نورانيّة» . . شمسٌ حاولت أن أفسح لها مكاناً في الروح لكنها أبت، فأبدلتها بالروح فأبت أيضاً.

أذكرها حين كانت تُقلِّبُ قلبي بين كَفَّيها الطريين، وكنت أُراقب هذا القلب بحذر، تُمرِّرهُ بين أصابعها الحليبيّة ككرة مَطّاطيِّة. . عيناي تراقبانه بحذرٍ أكثر. . تغرس أظفارها الفارهة في عروقه برفق ثم تنزعها خلسة. . فلم يخرج الدم بل كانت أوتار الحنين تدندن من الجروح التي حَفَرَتها.

فجسدها المتباهي بحلواه والذي لم يتطهَّر من آثامه بعد. . لم يمهلني لحظة فقيرة أستعيد فيها قليلاً من كبريائي. . لم أنسَ أنها كانت تُيمِّمُ القلب بأحاديثها الخضراء في يوم يابسٍ من عمري الرماديّ، وأذكر تماماً حينما قلت لها وأنا أسحب يدي السمراء من دفء يديها الحانيتين:

ـ مشكلتي أنني أدفع كبريائي ثمناً للمحبَّة.

ولأنني لست من الذين يعشقون السباحة في يَمّ المحرمات، ولا من الدَجَّالين الذين يُطرِّزُون الأساطير والأكاذيب على رمل حكاياتهم المعَفَّرة في طين الوجل والريبة، ولأنني لا أملك قنطار صفة من كل هذا. . لم أَرُق لها.

لم تُكلّف نفسها أبداً فتح نوافذ الرحابة لي، لم تحاول البتَّة. . داهمتها بمشاعري الثائرة، حاولت إقناعها بأنني صلب الغرام، فأتاني رَدُّها أقسى من الصخر الصلد، تأكَّدت من هذا عندما أغلقت باب المنزل بقوَّة بعد أن ألحقتني بكلمات لا تَقلُّ بذاءة عن سابقاتها:

ـ لا يدفعك إليَّ إلا شبقك المتوزِّعُ في أنحاء نحولك.

لم يكن بإمكاني أن أفيق من كلامها المسكر. . لم اكترث كثيراً لما قالته كما كنت سابقاً، وبخطىً متثائبة حملتني أقدامي إلى دكَّةٍ لأحد أصدقائي وأسلمت أجفاني لنعاسٍ ثقيل.

حَلِمتُ في تلك الدقائق أنني على أرضٍ تتقيأ الظَلمةَ والحساد، أرض وقف على إحدى تلالها غراب النفاق، وبَقَرَ رأس التَلّ ففاضت أعين المنافقين منه.

فتحت عَينَيّ على صوت انفتاح عُبوَّة المشروب.. حَسَّ صديقي أنني صحوت فناولني على الفور قارورة المشروب قائلاً:

ـ اسكب لنفسك ولي في الأقداح الصغيرة الموضوعة على الرفّ الذي يليك.

اعتدلت في جلستي.. ساويت غترتي.. أخرجت قدحين من بين الأقداح، سحبت القارورة من يده اليمنى، ثم تَأَمَّلت القَدَح قبل أن أسكب المشروب فيه، كان قدحاً بُنِّي اللون تكثر في باطنه علامات القِدَمِ وشقوق من الدرجة الثالثة تنتشر على أطرافه وجوانبه، أرقت بعض المشروب في القدح ثم ناولته إياه قائلاً:

ـ خُذ.

أشعل سيجارته وراح يمتصها بشراهة حَتّى أضاء قبس جمرتها من بين الوسطى والسَبَّابة، ثم مسح بيده اليسرى على جبينه وأخذ القدح قائلاً:

ـ شكراً.

كانت نورانيّة تعبث بمشاعري عبث طفلٍ بلعبته، ففي إحدى لقاءاتي بها،كانت تقاسيم وجهي تُبجّلُ وجهها المطلّ من خلف

طرحتها الشَفَّافة، وكفيّ الغليظتين تعبثان في خواتمها الساكنة في أصابعها اليسرى. . كانت بوادر التصديق تسطو على وجهي النحيل وهي تعترف لي بأن حُبِّي بُذرَ في تُراب قلبها، ونبت في أضلاعها، وأنَّ لا ثاني لي في حياتها. . وبعد دقائق هربت من رصيد العمر المتبَقِّي. . رنَّ هاتفها فأجابت المتصل:

أهلا حبيبي.

وَقفتُ كالمفجوع، تَمَنّيت لو أني سُوِّيتُ بالثرى ولم أقف هذا الموقف. . أخذت أنظر إليها بحقد وحبٍّ معاً. . رَفَعت رأسها فلاح لي نورها من خلف النقاب فتهدَّل غضبي وناخ عُنفي، حَتّى جاء صوتها رقراقاً:

لماذا وقفت؟

جَفَّ صوتي ولم أُجب.

نهَضَتْ فتراءت مَلاكاً يقف أمامي. . نهدان كاعبان، وعينان كأنهما لؤلؤتان، وقدٌّ كأنه رمحٌ طعن السماء حين وقفت. . تخشَّبت عيناي في هذا الملاك الماثل أمامي.

كان صمتها محزناً رغم بشاعة ما شاهدت وسمعت. . أدارت لي ظهرها وراح كعبها يراود الرخام عن نفسه وهي رائحة إلى سبيلها المجهول.

تَعَكّزتُ على الكرسي، وأحنيت رأسي ألماً وإحساساً بالضعف

والاحتقار، ثم أدرت وجهي لأراها ظبياً قد فَرَّ من دوحتي إلى الخلاء الفسيح.

على أن غيابها فَتَّت أملي إلا أن طيفها ما زال يُضيء.

الآن.. أشتهي أن أغنّي يباسي للغمام، أتوق لأن أعزف لحني الأخضر على أسماع الهاجعين، بي رغبة جامحة لأن أفرد مماتي قبل الممات، بي جنونٌ أسمرُ كَلَوني أريد أن أُعلِّقه على جمجمة تاريخي.. أسْندتُ جذعي النحيل على سارية أسمنتيّة، فمضيت أسحب من سَلَّة روحي أعواد الاشتياق وأكسرها عوداً عوداً.

أطبقت شفتيّ على طعم الحزن، وراح لساني يذوق ما تبقَّى منه فلا بدَّ لي من أن أبلع حَظِّي بكُلِّ رضى.

(٣)

وَحدي أخُطُّ بعودِ (عَوشَزةٍ) تُرابَ مآتمي
وعلى قِباب كَنيسة الأحلام ينفثني المللْ
تعويذةُ النسيان بين شِفاهنا مَرعُوشةٌ
ونبيذُ شعري أزرقُ وأنا المساقي والثملْ
فنبوءةُ الأحزان نحنُ مُبشَّرَانِ بوحيها
يا ليلةً حُبلى بميعادِ التَعَثُّر والكللْ

ماجد سليمان

الرياض يا حَفنةً مَغمُوسةً في وَجعٍ أزليّ. . الآن أراكِ شاحبة الملامح. . أطلت الحملقة في تضاريس ملامحكِ التُرابيَّة. . أتفحَّصُ يأسكِ الخالد. . أحاول أن أتماشى كعادتي مع الشجن القادم من نواحيك المتداخلة. . أيامي قَبسٌ من ذكريات مُمَزَّقة، فأنا لم أجد في جعبتكِ حين دَسستُ يَدَ حاجتي فيها سوى بضع ديونٍ أورثتنيها.

ها أنذا أيتها الرياض. . ها أنذا يا بُقعةً ظُلمت حين وُهِبت اسمها البريء من واقعها.

كُنتِ وما زلتِ.. تتكرّر مآسي ساكنيكِ كالأيام تماماً. فأنا ما زال يمتدُّ في بيداء صدري غُصنٌ أخضرُ لم يلحق عليه يَبَاس الأيام المدبرات، ولم تتمكّن من قضمه دودة الوقت.

يُتمي لهُاثٌ أقطع ببقاياه مخاوف طريقي، شوارعكِ ما زالت عابسةً في وجه عابريها.. لماذا أيتها الرياض؟!.. لماذا تجلدين ساكنينكِ من غير تافه ذنبٍ اقترفوه؟.. هداياكِ رُكَام المشاغل وأطنان من الهموم الصفراء، ولكِ عادةٌ لا تفارقكِ البَتَّة، ألا وهي ابتسامتك الساخرة من كل يائسٍ يخنقه زحام شوارعك المملوءة بالضجيج، والتي يتبادل الناس فيها الشتائم كتبادلهم للتحيَّات.

أقف على مشارفكِ ككهلٍ أقنطه الأمل البعيد من الحياة.. يتوه بصري حين أبعثه إلى مبانيك المسطَّحة.. جُدرٌ من الأسمنت يا كم دُكّت على خشونتها جلود الأمنيات الشابَّة، وصُلبت عليها أحلام الفتيات اليتيمات.

أيتها المدينة التي يزحف المرض في عروقها، ويركض تحت رملها، ها هو الليل يقفز فوق رؤوس أبنيتها وسطوحها، ويتسلَّلُ كلصٍّ بين ممرَّاتها الضيّقة، ينشر ظلامه بهدوء غير محسوس، يُجيدُ ليلها كيف يجعلها طفلةً ضعيفةً تحت عباءته.

وقفت هنا في حارتنا القديمة ذات الوجه المجدور، والتي نما بين أزقتها يُتمي، وركض خلف شوارعها شجني، حَطَّت يدي على أضلاعي التي ينضجع الحزن شبه نائم تحتها.. إنها حارتنا..

لم يلسعني الشوق لأي شيء بها، فليس لي ملامحٌ ظمأى، ولا قلبٌ يشهق بمحبَّتها. حَتّى الآن لا أحسُّ بأي التصاق حميميٍّ بها.. بدأت الخيالات تحاصرني، رأيت فُتات الذكريات.. عند باب بيت زوج أمي تَذَكَّرت أُمِّي وهي تمشط جديلة حزنها كل ليلة، ورائحة الخوف عالقة في ملابسها، وهناك تحت ذاك الجدار كان يجلس «مرزوق» الذي تراكمت السنون على ظهره الأحدب.

«مرزوق» صوت الكهولة المنهدم، الذي اغترف من عذابات الحياة ما اغترف.. تذكَّرتُه حينما كنت أراقب الجُمل التي تخرج من بين شَفَتيه المجعَّدتين وهو يعبث بلحييه المطرّزة بالشيب، فَوَقَع بصري على دمعةٍ تدحرجت من بين تجاعيد وجهه لتفترق من بين تجاعيد لحيته.. كانت لمعة دمعته بريقاً لم أشاهد مثله من قبل.

«مرزوق» صاحب الذكريات الغزيرة.. تساؤلاتٌ تنهش جدار صدره في ليلةٍ مدهونٌ ظلامها وسكونها برائحة الخوف.. ذاك الثمانينيّ، الذي أثقلته السنون، وألجمه الهَرَمُ بلا رحمة، «مرزوق» شيخ التهمه الكبر وأصدع اليأس قلبه.. نظرني بعينين انهدم عليهما حاجباه العريضان.. نَحَل عوده، وجفَّت ينابيع حياته، وأصابع يده اليمنى أنيسته التي تخلخل لحيته.

أمال نظره المرهق نحوي، وكأنني بوقوفي اجتررت قلبه الغائص في صدره، وبحركة بطيئة لعق بلسانه شفتيه المالحتين

وعصاه تنغرس أمام إبهام رجله الأيمن، وحين صددت عنه قليلاً وأعدت النظر إذا هو يعبث بكُمٍّ ثوبه ويستغفر الله دون توقف، فغادرته وهو يَهشُّ الظلام.

* * *

في ظهيرة اليوم التالي كنت أَتأمَّل الطريق والجدران والممرَّات الضيَّقة.. قليل من الوقت حَتّى تَوَقَّفت سَيَّارة (فان) أمام بيت جارتنا آنذاك.. نزلت منها فتاة تَضمُّ إليها كُتُباً مدرسيَّة كما يبدو، تَحَرَّكت السيَّارة الفان فالتفتت إليّ ودحرجت نظرة من يعرفني؛ أخفضت رأسي خجلاً واستمرّيت في المشي هادئاً، فما إن صِرتُ قريباً جاءني صوتها الهامس قائلاً:

أنت شريف!!.

كانت صاحبة الصوت جازمةً أنها تعرفني، وقفتُ.. تَرَدَّدتُ في الإجابة، ثم أَرسَلَتْ صوتها الناعم مرة ثانية:

هل أنت شريف؟!

أدرت لها وجهي دون جسدي، كانت في عباءة محتشمة خَاصّة بالمدارس حين تأكدت من كُتبها التي تحملها قبل قليل، أزاحت الغطاء عن عينيها قليلاً لتقول:

أنت شريف أليس كذلك!.

دقَّ صوتها قلبي كأنني عايشت أياماً صاحبة هذا اللكنة فقلت:

هل تعرفينني من قبل؟!

أحسستُ أنها راهنتْ نفسها على معرفتي فقالت:

ألم تعرفني؟!

استدرت لها كاملاً ملتحفاً دهشتي وسألتها:

معذرةً.. لا.. لم أعرفك!!

أحالت كتبها إلى يدها اليسرى، وأشارت بسَبَّابتها اليمنى إلى بابٍ خشبيّ تملأه الشقوق التي ينفذ من خلالها النور، وتتسلَّلُ منها الحشرات الصغيرة.. بابٌ شبه مخلوع، يقع في الجانب الأيسر من منزلٍ قديم متهالك، وكانت أمام الباب عَتَبةٌ حَرَّكتْ ماء ذاكرتي الراكد، فسألتها كالفائق من فقدان ذاكرته:

منال!!.. أأنت منال؟!!

كانت الصُدفة بحراً شكرت وقوفي بشاطئه، ونهاراً أرهب غربان الظلام.. إنها أعوام الحنين، إنها منال، إنها الفجر الذي مزَّق قميصه، إنها الفتاة التي كانت صديقتي وأختي وطفولتي.. إنها التي يا كم شاغبتني عند عتبة هذا الباب.. لم تُطل الانتظار معي قليلاً حَتّى قالت وهي ذاهبة:

أتمنى أن تكون بخير.

انفلتت من بين شَفَتيَّ كلمة لم أُرِد خروجها ولكن المفاجأة كانت تملك يديين جريئتين على سحبها من فوق لساني حين قلت لها:

لقد اشتقت لتلك الذكريات يا منال.

أحسست أنها ضاعت في بيداء حيائها لِما قلت، فاستدركتُ قائلاً:

يبدو أنك ما زلتِ تَدرُسين؟!!

لا.. أنا مُعلّمة في محافظة «...» وأذهب كل يوم وأعود.

يا إلهي.. وهل أنتِ على هذه الحال منذ زمن؟!.

تقريباً..

كان الله في عونكِ.

حسناً في أمان الله.

فاستدارت تطرق باب أهلها، فقلت في خَلَدي:

إنها منال الطفلة.. ها هي اليوم منال الإمرأة.

سمعت صرير مفاصل الباب حين فُتح لها فالتفتت إليَّ وهي داخلة، حَتّى عاد الصرير مَرَّة أخرى لينغلق الباب ويُزلج من الداخل.

إنه صرير يكرِّر صيحات الأزمنة، إنها الذكريات الموجعة، إنها كلاليب البكاء على طفولةٍ ذابت في ماء الماضي.. دفعت نفسي بعدها دفعاً هائماً في الأزقَّة المتربة وذاكرتي تعرض شريطها الباهت في مخيّلتي، أمشي في حارتنا وكأنني أمشي في غابةٍ من الشوك.

(٤)

حُـبٌّ، طـريـدٌ، نـافـرٌ، بـاتـت تُـبـدِّدهُ الـرُؤى
وَفُـتـاتُ حـلـمٍ يَـابـسٍ وَضِـيـاءُ صَـبـرٍ قـد ضَـؤل
لـحـنٌ، شَـجـيٌّ، ذائـبٌ، قـد شَـحَّ فـيـهِ الـعَـازفُ
لـو أنَّ روح الـصَـبِّ تُـتـلـفـهـا أعـاصـيـرُ الـعِـلـلْ
نُـمـسـي نُـعـاقـر حُـزنـنـا الـمـهـراقَ فـوقَ مَـبـيـتـنـا
نَـرجـو لُـعَـابَ الأمـنـيـات إلـى مـواجـعـنـا يـصـلْ

ماجد سليمان

عَمِلتُ في قصر قنداس.. قصرٌ يبعد عن الرياض بضع الأميال، قصرٌ يغوص في وحل رذائل ساكنيه، تَنبَّأ له السَحَرة والكُهّان بسيّدٍ أعور، فَتَحقّق ما تنبّأوه، سيّدٌ يَتدفّق الحقد من بين جنبيه، ويُشعّ من مقلتيه، سيّدٌ له حاشية من الزنادقة، يريقون رغباتهم على إماء القصر دون اكتراثٍ لعقابه، أو تأنيب من نفسه الجشعة، يرتاح في مجلسٍ يتصدّرهُ جسدهُ القصير، ذو المنكبين الصلبين، ورأسه الغائرة بين ترقوتيه، يُقلّب في يده اليمنى صولجانه المرصّع بالجواهر واللؤلؤ، ينحرف في خنصره ذي الأظفر الطويل

خاتمٌ عدَنيّ له فَصٌّ أسودُ مكسَّرٌ إلى أربعة أضلاع، تَبرُزُ له قِبةٌ متوسِّطة تعتليه، يُضيء كل ما أومأ بيده الباطشة مخاطباً حاشيته المتناثرين عند ركبتيه، المحيطين بكرسيه المنقوش بكتابات الآلهة القديمة، ومفاخر الأقوام التي تناسلوا منها.

ينحني عن يمينه كهلٌ مستشار له، له ضفيرة كالأظلاف، ولحيةٌ ممشوطةٌ حتى نهاية صدره المسطّح، وتُطلُّ من داخل أذنيه الكبيرتين بعض شعيرات بيضاء وأخرى سوداء، يرتدي رداءً بُنيّاً تظهر عليه بعض الرُقع والفتوق، ينتهي فمه إلى قرب شحمتي أذنيه حين يبتسم بنفاقٍ إلى السيّد.

يَتَعامى عن زَلاّت السيّد كعادةٍ يتخذها كل ذي ضعف، فلكي يرفل في النعيم لا بدَّ من تسييس الدين والإنسانية، حَتّى ينهمر عطاء السيّد.

كان السيّد لا يناديه إلا «عبدان». . إسمٌ كان ساكنو قصر قنداس لا يؤمنون أنه اسمه الحقيقي، بقدر ما كانوا جازمين أن له اسماً آخر استبدله بعبدان، حين صار في استشارة السيّد، وقيل إن السيّد تسبّب في جعله خصيّاً كعادته حين يغضب من بعض رجاله، فكان لا يعاقب إلا بالرضّ أو القطع، لكن بلوغه الاستشارة الخاصة بالسيّد يندفن سِرّها تحت الأراضين السبع.

تَمَخّض الصبح عن خبر موت السيّد على فراش زوجته

العذراء، دَوّى خبره في ممرّات القصر لتتلقّفه الألسن بفرحٍ وغبطة لأنفسهم.

«مات السيّد». .

مات بهدوء بعكس ضجيج أوامره الرماديّة التي كان يلقي بها جنوده على سكّان القصر.

* * *

يحيط بالقصر سورٌ عالٍ بُني من الطين والتبن، شُقّت فيه ثُقوبٌ واسعة للمراقبة، صُنع بابه من الخشب الغليظ، ودُقّت له يدان متينتان لدرفتين مُبَرْوَزَتين بالحديد، وأُودع له تِرباسٌ من الفولاذ، وأُتُمن مفتاحه لدى رئيس الحراسات الليلية.

أُمر بإغلاقه قُبيل المساء بساعة، كان وقتاً غير المعتاد، هَمَّ الحرس ليكوّنوا فرقتين، كل فرقة تدفع درفة ليكتمل إغلاق الباب، وحين أوشكت الدرفتان على الالتحام بان من بينهما امرأة وكأنها انتُشِلَت من خلالهما، تضرب جيدها بيدٍ تُسمَعُ خشخشة أساورها وتصيح بصوت مُتهدّل:

ـ تَوَقّفوا. . تَوَقّفوا. .

تطايرت أعين الحرَّاس فيها، ما زالت كفّها تهوي على جيدها حتَّى أحمرّ وكأنَّ دمه سَينزّ.

صاح رئيس الحرس بصوت مُتقطّع:

تَوَقّفوا.

أوقف الحَرَس الدرفتين، فنزل رئيس الحراسات من منصّة خشبيّة أُعدَّت لإلقاء الأوامر، سعى إليها على هون، حين وصلها كانت غامسةً يديها في الرمل وتَسُحُّ دمعها فوق ذَرّاته الجافَّة، اقترب أكثر وأمسك بذقنها الطويل ورفع وجهها في وجهه وهَمَس:

ـ ما تريدين يا امرأة؟

خطوط الكحل التي أسلكها دمعُها الفضيّ على خديَّها الطريين توحي بحرقةٍ تعبر صدرها بخشونة. تساءل في نفسه:

«هل هي أرملة؟. أم أمٌ فقدت وليداً لها؟

أعاد سؤاله كَرَّة أخرى، ولكن بصوت خفيض يفوق الهمس:

ما تريدين يا امرأة؟

كفكفت بيديها النحيلتين أجزاء الدمع، وابتلعت ريقها بصعوبة، ثم أتى صوتها يائساً:

زوجي يا رئيس الحرس.. زوجي..

أخذ حفنة من التّراب وفركها ثمَّ ذرَّها في الهواء.. التفت إلى الحرس حوله عن يمينه وشماله، وعن خلفه ثمَّ عاد بوجهه نحوها، وقال:

وما خَطبُ زوجك؟

وَقَفَت ونَظَرت له بوجهٍ اختلط فوقه الدمع والكحل وثالثهما الرمل:

زوجي في سجن السيّد وأنا وأطفالي لا عائل لنا سواه.

اقتضب قلبه، وأوجس منها الريبة، رفع رأسه إلى قصر السيّد ثم أعاده وقال لها:

وما قضيّته؟ لعل زوجك اقترف ما أوجب حبسه وتحقيق العقاب عليه.

أجابت وهي تنفض ثيابها المرقّعة عن الرمل:

أقسم إنه أُخذ ظلماً يا رئيس، أقسم لك.

أسند ذقنه على قبضته اليمنى، وقال بنبرة ساخرة:

السيّد لا حاجة له بحبس زوجك بهتاناً، لتمضي من أمام الباب، ودعي الحرّاس يُتِمُّون ما بدأوه.

تَرَاجَعَت خطوتين قصيرتين، وقالت بتحدٍ:

لن أمضي حتَّى تُقنع السيّد بإطلاق سراح زوجي.

أحسَّ الحرّاس بصعوبة التفاهم معها، بعد قليل كانت الشمس تسحب شرشفها الأصفر المخلوط بحمرة الغروب.

كل شيء في القصر مخيف ومريب، الطقس الذي جعل الكثيرين يخافون من بعضهم، ودفعهم إلى أن يقرأوا أفكار بعضهم

في صمت، وفي وقت لاحق دفعهم إلى الخَرَس، لأن أي كلمة تسبب ارتباكاً، وأي زلّة قد تهوي بصاحبها في سجون السيّد.

أُدخلت المرأة على السيّد بعد انقضاء ساعتين من المساء، تراءى لها وكأنه يستحضر الأرواح، رفع بصره إليها فرأى جمالاً يلبس الأسمال،كان مُجَالساً لبعض منافقيه، وصوت ضحكهم وهمسهم يَتَخبّط على ألسنتهم، ولغطهم يتصاعد.. رأت قطع الثلج وهي تُقرقع في كؤوسهم، عالمٌ حافلٌ بالمتعة والخصوبة.

استدار السيّد، ورَنَا إليها بشفقة مصطنعة، فشاهد تاريخاً أغبرَ يتمزَّق في جسدها المريض المستور بالأسمال، كان عَرَقُ حزنها لؤلؤاً يلمع فوق عنقها ونحرها، وَقَفَ فاغر الفم متدلّي اللسان، مُستمعاً إليها بسخرية وهي تَتَرَجّى:

زوجي يا سيّدي، زوجي..

دَعَكَ شاربه المدهون بالشراب وقال:

ما به؟

إنه في السجن دون ذنب اقترفه، صدِّقني يا سيّدي، جنودك اعتقلوه ظُلماً. فهو دافع عن نفسه فقط حين اعتدى عليه نائب رئيس الحرس.

ضرب بيده طاولةً صغيرةً وضعت عن يمينه وقال:

ـ أنا لا أظلم أحداً يا امرأة.

أشاح بوجهه إلى الجندي الذي يقف ليس ببعيد عنه وأمره:

ـ أحضروا زوجها.

أومأ الجندي إيماءة تَدُلُّ على الطاعة وانصرف.

بعد وقت قليل أُوقف السجين أمام السيّد يحرسه من خلفه حارسان نحيلان، نهض السيّد من مجلسه واقترب من الرجل وهمس للمرأة:

ـ هل هذا هو؟

أجابت بتمتمة:

ـ هـ هـ هو.

جَرَت عيناه على الرجل بدقّة، ثم سلَّ خنجراً لمعت أضواء سقف القصر على نصله الحاد، خفق القلبان بشدّة، وبرزت عيناهما.

مرَّرَ السيّد النصل على الوريد.. ثانية واحدة فانخطَّ خطٌّ من الدم دائراً على عنقه، فانفجرت روح الزوجة صائحة:

ـ يا سيّد.

رمى بصره نحوها وقال:

ـ قَصري يهتزّ حين أغضب، فكيف بمن ينعتني بالظلم.

هَوَت جُثّة الرجل عند أقدامه، وتأمَّله السيّد قليلاً بينما الزوجة

تضرب الخد والنحر، وتَسحُّ دماً بدلاً من الدمع الذي لم يعد يجدي لإنقاذ حبيبٍ في هذا القصر.

في اليوم التالي وَقَف «عبدان» خطيباً في مسجد القصر مجلجلاً:

ـ من خَرَج على سيّد القصر فالقتل جزاؤه.. وليكن مُنيف المتمرّد عِبرةً لكل من تسوّل له نفسه الخروج على السيّد.. يا عباد الله طاعة السيّد واجبة، وعصيانه عصيان لله ولرسوله، فاتقوا الله عباد الله.

* * *

بعد أيام شاهدتُ السيّد حين كانت سيَّارته الفارهة ذات الصفيح الصلب، والزجاج المضاد للرصاص، تقف أمام بوّابة القصر لتقلّه إلى داخل الرياض، كان يحتسي قهوته السمراء قُبيل المغرب ثم ينزل من شرفته يقتفيه ثلاثة من حرسه ذوي الأجسام المصبوبة والثياب المرقّطة، والأحزمة التي تشدُّ على بطن كلٍّ منهم، كان يمشي بخفّةٍ وذلك ما يتماشى تماماً مع قِصَرِهِ وعرضه.

يفتح له السائق باب الرَّاكب ليصعد في تعالٍ مكشوف لمشاهديه، يتحدّث مع أحد حرسه ثم يغلق باب السيّارة دون أن يودّع أو يلوّح بيده المحمّلة بأطنان التعدّي والغلو.

تخترق سيّارته شوارع الرياض المخنوقة الزحام ماضياً في ليلة

خاصةٍ عند من نهجوا منهجه، وما أن يُضيء سنُّ الفجر حتّى يُسمع صوت توقّف عجلات سيّارته عند البوّابة الخلفيّة للقصر، فيترجّل منها كذئبٍ أخدَرَهُ الشَبَع، يتهادى حتّى يدخل قصره، وكأنه على استحياء من دخوله.

يُفرقِعُ أصابعه كعلامةٍ لإماء القصر كي يُغدقن عليه من واجباتهنَّ من لمسات المساج، وتجهيز حوض الماء الساخن المرشوش بعطور الاستحمام، ليُلقي بنفسه فيه كجيفةٍ نجسة.

وبعد أقل من الساعة يخرج من الحوض بعد أن ازداد قُبحاً، ليهوي على أحد جنبيه كمقتولٍ ذُبَّ رأسه واقفاً فَهَوى.

شبابيك القصر تنقرها العُقبان لتدفع دِرَفها مدخلاً لها كلَّ فجرٍ رماديّ.. لم يستسلم لضرب مناقيرها غير شبَّاك غرفة جلوس السيّد الخاصَّة، شبّاكٌ أُوصد بطريقةٍ متهاونة، فأُسلم لضيافة مخالبها ومناقيرها، تعبث في غرفة جلوسه، تَتَغوّطُ في زواياها، وتنعقُ بزهو.. تدور حول تمثاله الصلصاليّ وتخربش وجهه مُحدثةً فيه خطوطاً مستقيمةً وغير مستقيمة.. هذا ما وجدناه حين أُمرنا بتتبّع أمر تلك الغرفة.

دخلنا غرفته بعد هروب العُقبان حين أَحسّت بحركة المفتاح في ترباس الباب.. دخلنا على مشهدٍ تتربّع عليه الفوضى، كان يهمّه من تلك الغرفة تمثاله الذي أطفأت العُقبان في صلصاله غِلَّ الكارهين له.

دواليبُ من الزجاج صُفَّت عليها تحفٌ ومزهرياتٌ مرصّعةٌ بجواهر صغيرة، مرسومةٌ بخطوطٍ مذهّبة، لم يسلم من أثاث الغرفة غير مجسّمٍ صغيرٍ لنمرٍ أفريقيّ، يفتخر فيه السيّد كثيراً لأنه أتاه هديّة من صديقه الذي يسامره كل ليلتين في قصره الواقع خلف شارعٍ ضيقٍ من شوارع الرياض الغاضبة.

حين أعلمناه بما حلَّ في الغرفة، تضّرَس وَفَار، كان يغلي من الداخل، أصدر لحظتها أمراً بمعاقبة المسؤول عن نظافة القصر.. إنه الخِلْقة الأخرى للسيّد الذي قبله إلا قليلا، ولو أن السيّد الأول عاش حتّى أدرك ما حلّ بالثاني لكان رأس مسؤول النظافة يتأرجح تحت سقف الغرفة، ليس جزاء لعمل، بل تعبيراً عن سخطه.

* * *

ففي يومٍ قائضٍ تخرق الشمس رؤوس الواقفين تحتها، أثقل على عمّال القصر ببناء جدارٍ رفيعٍ لا يدرى ما مراده منه، سقط أحدهم موشكاً على الهلاك.. إستدارت رأس السيّد إليه من فوق الشرفة فصاح به:

لماذا توقّفت؟

بالكاد رفع العامل رأسه إلى الشرفة، وحرارة جسمه تغلي وعيناه تدوران وقال:

لا أستطيع اكمال هذا العمل في هذا الجو الحارق.

وقف السيّد ورفع بندقيته، وقال بنبرةٍ غاضبة:

إخرس.. ستكمل العمل وإلا أفنيتك من الدنيا.

قال له العامل ببرود:

أرحني من العذاب في قصرك.

فسدّد له رصاصةً أسكتته إلى الأبد.

ليالي القصر غَيَّرتني تماماً.. مؤكدٌ أنني أندم كثيراً، وألوم نفسي على ضعفي، وأخاصم قلبي، لكن طيف «انيثا» ظلَّ يلاحقني.

سيّد القصر.. كانت عيناه تفترسانها بلا رأفه، أمضى وقتاً ليس بالطويل وهو يفركُ روحه على لونها الفائر بالسحر، وَجَدَت أخاديد لعابه ممراتٍ واسعةً حول فمه الفاغر دهشةً ولهفة.. لكنه لم ينلها على أنّه السيّد.

كانت «أنيثا» تتخايل لي في نومي ويقظتي جمالاً أذعن لنداء الحياة.. تمضي تتجسَّد ما أن أسمع صوت امرأة، وما أن تنسنس رائحة لأنثى حتّى أنشدُّ إليها بخيطٍ غير مرئي، وحين ألمح واحدةً أيّاً كانت فإنها لا تقف بجمال «انيثا»، بلذّتها، ورشاقة حركاتها: ذابلة الأجفان.. دافئة.. رطبة.. هادئة.. كأنَّ ساقيها عمودان مضيئان، عَرَقها المنزلق من جبينها حين يداهمها الحياء كأنه عرسٌ من العطور، وخجلها دائم النبع من تحت قدميها.. تمنّيتها ظلّي

على الأرض، فهي كالأرجوحة تماماً حين تروح وتأتي، اقترابها منّي كان دائماً بمقدار، لأنها لا تقترب كثيراً لكي لا تصير باليد، ثم بعدها تقع في القلب حين تقع.

أُحدّد شيئاً في الليل، وحين يبصرني النهار أنقضه، أصبحت لا أعرف كيف أُحدّد رغباتي وعواطفي، لا أعرف ماذا أريد من هذا الملاك، مع أنه يكفيني أن أبحر في عينيها لحظة انتزاعي لجسدها من سكينته.

تعبرني كقمرٍ دمشقيٍّ ينغرس في الروح، فبالكاد أعضائي يأخذ بعضها بتلابيب بعض، فأحسُّ أنَّ الهَلَعَ يضع يده الباردة على عنقي، لأجدني بعدها مقطوع النَفَس، لأنَّ لقاءها فضيلةٌ تُبدّد خوفي من الظلام.

اكتشفت أنّها مسيحيّة تخفي ديانتها.. حبُّ مسيحيّةٍ يقطن قلب امرئٍ مسلم.. تأكدّت من ذلك حين شاهدتها مرّةً تُقبِّلُ سلسال الصليب الذي يطوّقُ عنقها الطويلة، وتثير بعض عباداتهم خِفْيَة.

تَعقَّبتها حين انتهت فترة عملها حين كان الفجر يزحف على ضلوع السماء.. انثنت خطواتي تتّبعها دون أن أُبدي أيَّ صوتٍ قد يفضحني، حتّى أغلقت على نفسها الغرفة، اقتربت بهدوء فاقترفتُ إثم التجسُّس على إنسان في خلوته، نظرت إليها من ثُقبٍ في بطن الباب، أحدثته قبل مجيئها لكي أربط دليل مسيحيّتها بقلبي المسلم.

كانت تثبِّتُ الصُلبان على جدران غرفتها، وتُقيم طقوس صلواتها بطريقة المسيح، تأكدّت بعدها أنها مسيحيّة.

غرقتْ في الصمت والتأمّل، رفعتُ عيني عن ثقب الباب، فأغمضتُ قلبي دون عينيّ لكي يجمع صُوَرَ الحقيقة في عروقه.

بعد شهور أصابها مَرضٌ شديد، فصار لحمها نَيّا، وجلدها لاصقاً بأضلاعها وعظامها، وَدَوّى في تنفّسها الإضطراب، فصارت كأنَّها ممزوجة بالشَّفَقَة، أمضت تُحَدِّث القصر وتبكي، فانتهت مَيّتةً على كرسيها الخيزان الهزّاز، فأسلمت نفسي لليأس بعدها.

عَمِلتُ مُدّةً قصيرةً في هذا القصر المغلق على أسرار كبار البلاد، الذي تتمايل فيه قدود المومسات مُلهبةً جدران الأسمنت المطليّة بأفخر أنواع الدهان، واللاتي يفوح غنجهنَّ في فضاء المكان، وقفتُ مؤدياً عملي التعيس، لأشاهد في جهة مقابلة لهنَّ تاجرين عربيين على طاولة النرد يكرعان الخمر بشراهة.. أجسادٌ مائلةٌ مميلة، وتاجران يرفلان في النعيم، ويبذُلان المال بسخاء على تلك الأجساد والكؤوس، وعلى بوابة القصر يقف الحَرَسُ والعَوَنة الظالمون ينعتون المارين بكل قبيحة.

على طاولة التاجرَين جريدة تتوسط الكأسين الذهبيتين، تحمل خبراً عنوانه: موت عائلة عربية بسبب نقص الدواء.

يقوم التاجر الأول بقلب الجريدة على الخبر ويوقّع على شيك ليصرف لعلاج لاعب كرة قدمٍ عربي.

يسحب التاجر الثاني الجريدة، وينظر في الصفحة الأخيرة ليقع بصره المتخبِّط على عمودٍ مُيز بلون خاص عنوانه: غَزَّة تحت النار.. يقلب هو الآخر الجريدة على المقال، ويسحب هاتفه متصلاً:

- أحجزوا للراقصة فلانة إلى القصر قبل ارتفاع النار في البلاد المجاورة للاحتلال.

خَرجتُ من القصر رافضاً استمرار عملي فيه، رأيت النهار شيخاً وَسّع لي حضوره، لأرى الرياض كأرضٍ ملأى بالغياب، فدخلتها أبحث عن رزقٍ آخر.

(٥)

سَلَبَ المُحالُ بَكَارة الآمال غدراً، خِلسةً
ورمال جَفني صَدَّ وبل النوم عنها وارتحلْ
لستِ بمائسةٍ يُباغَتُ نَهدُها وقوَامُها
أو حُسنُ فاتنةٍ يَلوكُ غَرَامَها فَكُّ الزللْ
يهذي بعفتها زُنُاةُ الأرض كل صبيحةٍ
رَجزٌ لمخمورين خَلْف الخمرة ارتجزوا الأجلْ

ماجد سليمان

وَقَفتُ بين يَديّ أفكِّر في رزقي، فلقمة عيشي جَلَّادٌ لا أفيق من سياطه الملتهبة، كان البحث عن العمل شاقّاً إلى أن انتهى بحثي إلى قبولي حارس أمنٍ في إحدى الوزارات، تدبَّرتُ سَكَني.. دخلت الغرفة، وضعت حقيبتي التي لا تحوي سوى ثوب واحد، ولبسة داخلية، وثلاثة ريالات مُنَتَّفة.. ألقيت بجسدي المنهدم على الفراش لأهرب من واقعي إلى نومي، فأنا أُحبُّ أن أنام في غرفة تسبح في الظلام.

في الصباح كانت الشمس تغسل رأس الرياض عن همومها أكثر

من صباح عنفوانيّ. كانت الأطياف تعبر أَزقَّتها المملوءة بالصخب والضجر، فلم يكن لحن الهدوء عازفاً، ولم تكن تحلم هذه الرياض بيوم يُبَشِّرها بحدثٍ يغزل جديلتها المجعَّدة من ضغوط الحياة المبثوثة في كل شوارعها الضَيّقة قبل الواسعة.

صَحوت على حرارة الضوء المتسلِّل من ثقب في شباك الغرفة.. جلست بتكاسل فرفعت بصري أُقَلِّبه في الغرفة، أَهشُّ بيديّ خفافيش النوم لتبتعد عن سمائي.. أُزعج المكان بتثاؤبي الثقيل، فأسمع زجاج النوم قد تحطَّم من حول جسدي، أُحدّق في سقف الغرفة، وكأنني أشاهده للوهلة الأولى، أراقب زخارفه الملوَّنة بنهم، أغازل خطوط الجبس الملصقة عليه بِتَمعُّنٍ شديد، تكاد هذه عادة جديدة عَلَيَّ.

أدفع ببطانيتي سُوريّة الصنع عن جسدي النحيل، وكأنني أدفع كيساً كبيراً من القمح. غسلت وجهي، ووقعت عيناي على شعرة بيضاء تمَرَّدت من بين شعر ذقني فتنهدت بقسوة، ثم ارتديت ملابسي وغادرت إلى العمل.

حين بدأ عملي أشار إليَّ أحدهم بأن أُوصل أحد كبار الشخصيات إلى مكتب الوزير.. لقد كانت هذه الشخصية رجلاً في منتصف العمر تقريباً، له ذقن عَذَّبهُ بالصبغة السوداء كما يبدو، وله أنفٌ طويل يكاد يلامس شفته العليا.. يرتدي مشلحاً سُكَّريَّ اللون

فاخر الخياطة. . ويعتمر شماغاً أحمرَ يضع عليها عِقَالاً مائلاً بعض الشيء إلى أذنه اليسرى. . أخذته وأدخلته المصعد الكهربائي، وحين تحرّك بنا المصعد لمحته يرمقني بشراهة وكأنه يعرفني من قبل. . كنت أزعج المكان بقرع كعب حذائي كأسلوبٍ للانتظار. . أضاءت أرقام المصعد مُعلنةً الاستعداد لفتح الباب، طلبت منه الانتظار ريثما أُخبر المسؤول الكبير بوصوله، دخلت مكتب الوزير فإذا هم في ما يشبه الاجتماع، وكنت لحظتها أول مَرَّة أشاهد فيها وزيراً في حياتي. . وزيرٌ تتقافز من وجهه حماقات الأرض، يجلس على كرسي تُزيّنه النقوش والزخارف، يَلتفُّ من حوله أعوانه الظلمة الذين تركض الخيانة في عروقهم، ركض بنات الريح في بيداء الظمأ.

أخرج سكرتيره صاحب الوجه المقمطر ورقة القرار الأول. . لبس الوزير نَظَّارته ذات البرواز الواسع ذي الطلاء الذهبي، انهالت تجاعيد وجهه على لحييه وأنفه حين شرع في قراءة الورقة. . حَرَّك جسمه الضخم فارتعشت القلوب خلف أقفاص الصدور. قرأ أول سطر من قراره فتفوَّه سُخفاً:

التشديد على الحضور والانصراف.

نقرت الباب من الداخل بمفصل سبابتي، فأتت نظرات السكرتير ملتهبة كالحاقد المبغض مصحوبة بسؤاله:

ما تريد؟

قلت له وقد تَقدَّمتُ ثلاثة أشبار تقريباً، وأنا أدعك ظهر يدي اليمنى بأناملي اليسرى:

هناك شَخصيّة ترغب في لقاء معاليه.

التفت إلى الوزير وهمس بخبث في سمعه ثم قال لي:

دعهُ ينتظر في القاعة الجانبيّة.

رجعت ثم طلبت منه الانتظار فأحسَّ باحتقار الوزير له فعدَّل من مشلحه، واستدار دون إجابة إلى صالة انتظار المراجعين.

بعدها اقتربت من زميلي موظف الأمن المشغول بالكتابة كما يبدو، اقتربت لأتحدّث معه قليلاً، لكنني فوجئت بوجهٍ عَبوسٍ لا يقبل حَتّى النظرة الباسمة له.

رنَّ هاتفه الملقى على طاولته المهترئة، التفت إليه بانزعاج، ثم عاد لإكمال كتابة سطره المستعجل، تصاعد صوت الهاتف مَرَّةً أخرى، لَكَزَ زِرَّهُ الأحمر، ونهض منصرفاً إلى حيث لا يُعلَم.

❊ ❊ ❊

كان يومَي الخميس والجمعة إجازة تأتي كالحلم، فلم أكن أحسُّ بما يمتّعني في هذه الرياض، لقدكنت أقضيها مُمَرِّغاً عيناي في مشاهدة الذكريات، والتأمّل في جدران البيت الذي عشنا فيه.. أراني حين كنت صغيراً أركض هارباً من زوج أمي وهو يلحق بي

حاملاً في يده الباطشة، تلك القطعة الخشبيّة.. ما زلت أراني.. أراني حين قَذَف بقطعة الخشب ليرتطم في أعلى ظهري، فأنكفئ على وجهي قابضاً بكلتا راحتيّ على أعلى ظهري من شدّة الألم.. أراني حين خَطَّ القَدَرُ تحت جفنيّ دموعي التي لم يكن لها أنيسٌ غير كُمّي المتّسخ.

إنها الذكريات، فالمرء يعيش بالماضي، لأن المقبل لا يعني غير طويلي الأمل، أما أنا فلا أملك حَتَّى حَفنةً من الأمل.

وفي ضُحى يوم الجمعة كان صوت الأذان الداعي لصلاة الجمعة روحانياً، تداخلت روحي بهذا الصوت الإيمانيّ، ذهبت للصلاة بعد نصف ساعة من أذانها الأول، دخلت الجامع الذي رُصِّعَ سقفه باللآلئ ونُقِشَت جدرانه بأرقى الزخارف، وعُطِّرت سجاجيده بأفخر أنواع العطور.. ركضت عيناي في زواياه منذهلةً مُتعجّبة.

جلست في انتظار الخطيب ليدخل.. وبعد وقت.. وعلى المنبر الخشبي الصنع المطليّ بدهان عوديّ اللون، يُضيء النور الهابط من سقف المسجد على أضلاعه التي يقف خلفها خطيبٌ هادئ الأسلوب، على رأسه شماغٌ شديد الحمرة لا يضع فوقه العقال الأسود الذي تعارف عليه المجتمع.. له لحية مُشَذَّبةٌ تشذيباً متوسِّط الحسن، وَقَفَ على المنبر متكئاً على عصاً غليظة لها رأسٌ

مدببة لونها أسودُ قاتم. . رفع يده اليمنى ذات الجلد الأسمر الجاف التي برزت عروق ظهرها، ونقر بسبابتها رأس الميكروفون ثم سَلّم:

ـ السلام عليكم.

فنهض المؤذن من مكانه، واقترب من ميكروفون آخر مقابلٍ لمنبر الخطيب وُضِع خِصِّيصاً للأذان؛ لحظات، وعاد المؤذن إلى مكانه بعدما أنهى الأذان وهو يتنحنح بصوت عالٍ متقطّعٍ يغالب أثناءه بلغماً عَلِقَ في حلقه.

بدأ الخطيب يخطب عن ضياع الشباب، وعن التغرير بهم ليرتكبوا الجرائم التي وصفها بالإرهاب. . وارتفع صوته، وأخذ يحذّر ويندّد ويُرهّب مُعَلِّلاً أن الإرهاب خيانة للدِّين، والوطن، والمجتمع.

كان من بين المأمومين الجالسين شابٌّ تجاوز الثلاثين خريفاً. . له شاربٌ محفوفٌ بعض الشيء، وزَغَبٌ مُتفرِّق على لحييه الأسحمين. . عاطلٌ عن العمل والأمل في آنٍ واحد، زادت حِدَّة استماعه لما يقوله الخطيب الذي كان من ضمن خطبته:

ـ على العلماء والآباء تهيئة النشء من الانزلاق في كهوف الإرهاب.

صوت الخطيب يرتفع حماساً واندفاعاً، فنهض الفتى كأن قلبه قد نفذ فيه حديد مُتَلظٍّ بعد أن فجَّ أضلاعه الدقيقة:

ـ وصِحّة المواطن، وتعليمه، والبطالة التي التهمت الشباب، والجحيم البشري الذي وُئدت فيه أمنياتنا وآمالنا. . لماذا لا تتحدَّثون عنها؟!.

سَكَتَ بعدها ثم بَلَعَ ريقه، وأكمل:

ـ همومنا سيلٌ لا ينقطع ودَوَّامةٌ وقفنا عاجزين عن الخروج منها. . تآكل صبرنا، وضمرت عضلات تحمّلنا، فأصبحنا نسوس شوارع المدينة وأزقتها كالمتسوّلين العاجزين. . فالظلم يرمي ذيله في كل ناحية، وأنت تريد تهيئة النشء وهو في غابات الفراغ وشِدّة العَوَز.

حَدَّج الخطيب إلى الفتى بعينين جاحظتين كأنهما ستخرجان من جمجمته، فأردف الفتى:

ـ الإرهاب يا خطيب الزمان مصدره الظلم. . فنصيحتي استبدل خطبك بخطبٍ تُحَذّر الظالمين من ظلمهم.

اغتسل الجامع بالصمت، فقال الخطيب:

هذا والله اعلم وصلى الله على نبينا محمد.

* * *

في صباح السبت كان المشهد الذي شاهدته في الجامع تُعيده الذّاكرة كل لحظة، أَتَفَرَّسُ في القنوط الذي حمله ذلك الشاب وواجه به الخطيب، فأزفر بشدَّة:

لله ما أشجعك!!..

أفتح المذياع المهترئ الذي أجلسه أحد زملائي على رفٍّ خشبيٍّ شبه مُتفَتَّتٍ، وكعادتي أُغيّر من محطَّة إلى محطَّة، فأنا لا أُحبُّ السياسة حَتّى وإن كانت تَخُصُّ بَلَدي، فكانت كل المحطَّات التي أغيّر منها إلى الأخرى:

ـإسرائيل تقصف مبنى الـ.........

ز ز ز ز ز ز ز

ـاستقبل خادم الحرمين الشريفين الملك...........

لم أجد ما يروق لي، أخذت أُكرِّرُ البحث عن ما قد يُسلِّيني:

ـسوق الأسهم السعودية في تدهورٍ شديد، وقد التقينا اليـ...

ز ز ز ز ز ز ز

ـ ألو، معنا المتصلة من منطقة الرياض تفضلي:

ز ز ز ز ز ز ز

أُغلِقُ المذياع.. أضرب بِباطن كَفِّي ناصية المذياع، أعضُّ بأسناني على أسناني، وأقول في نفسي:

ـ أفففففف، ليس ثمَّة ما يُبهج؟!

كانت بَوَّابة العمل أول جمادٍ أُلقي عليه بتحيَّة الصباح، لأشاهد بعدها سَيَّارة الصحف واقفةً على الجهة اليسرى من البوابة، يقوم

بِصَفِّها موظفٌ يرتدي بنطالاً من الجينز، وقُبَّعةً سوداء ذات نقوش بيضاء، وعلامة تجاريَّة مطبوعة بنفس اللون في قِمَّة الرأس، صِحتُ به:

هلاّ أتيت لي بنسخة من جريدة اليوم؟.

التفت إليّ وأومأ برأسه بالإجابة.

عدت إلى غرفة الحراسة، أخذت أراقب الشارع العام من خلف الزجاج الملئ بالأوساخ وبصمات العاملين في الحراسة.. صوت ارتطام الجريدة على الطاولة كان مدوياً، فالتفتُّ بدهشة قائلاً:

تعامل برفقٍ يا هذا.

كان قد أعطاني ظهره العريض ذاهباً، وهو يُقلّب كميَّة الصحف التي بين يديه اللتين كساهما بِقُفَّازين أزرقين.. أخذت الجريدة فراحت عيناي تركضان بقراءة سريعة للأخبار، ولساني يقرأ بصوت خافت كعادتي.

كان الموسم ديمةً تشاغب شوارع الرياض وممرَّاتها وأرصفتها الشبه مطليَّة بالدهان المروري.. كُنت أرسل بصري بين السماء والأرض، أُحلِّقُ بينهما ولو بالخيال.. رائحة المطر تندفع إلى الغرفة، ما زالت الساعة مُبكِّرةً لحضور الموظفين.. وَصَل زميلي «ناصر» وَنَزَل من سَيَّارة الأجرة.. أسمع ضجيجاً قد انفلت من

داخل السَيَّارة بعد أن فتح ناصر الباب نازلاً، مغلقاً الباب بقوّة، واتجه إليَّ طالباً:

هل أجد عندك ثلاثين ريالاً سلفاً؟

كان طلبه مخجلاً له بقدر ما هو مرهق لي، فأجبته:

لا أملك إلا ثلاثة ريالات باهتة اللون.. هل تريدها؟

كشَّر بوجهه قائلاً:

هل تسخر مني مع هطول المطر..؟!

قلت له بشبه ابتسامه:

العفو، لكن هذا هو المال الذي لديّ الآن..

فاستدار وهو يقول لي:

ما أذلَّ الرجل بلا مال..

أخذت أُراقبه وهو يتجادل مع السائق الذي مَلّ من مماطلته، فكان صوت شجارهما مرتفعاً؛ خرجت من الغرفة واتجهت إليهما ففرّقت بينهما كي لا يحصل ما لا يُحمد حصوله، فكانت يداهما كالحديد وهما يحاولان أن ينتقما لنفسيها؛ لقد كان السائق قصيراً متيناً يلبس ثوباً يميل إلى الصُفرة، وله أزرارٌ سوداء اللون، تحيط بها زخارف من الخيوط البيضاء، يضع على رأسه طاقيةً توزعت عليها دوائر من الخيوط الذهبيّة التي بَهت أغلبها؛ تبدو بطنه زائدة

أكثر من المعقول لدرجة أنه وهو يتشاجر مع ناصر كانت بطنه تدفعني بفضل قُوَّة صوته وهو يقول:

لك ثلاثة أيام وأنت تَعِدني بدفع المبلغ.. الآن مطلوب منك ١٢٠ ريالاً أجرة أربع توصيلات.

لم يكن ناصر صاحب عقل رزين ولا خُلقٍ حميد.. مذ عرفته فهو يرى أن كل أمرٍ لا يحسم إلا بالقوة، فلم يحلُ له إلا أن شتمه قائلاً:

إغرب أيها الـ........ يا.......

لم يتمالك السائق نفسه، فدفعني بقوة لأرتطم بعظام ناصر حَتّى وقعنا في حفرة مطيرة، آلمني ظهري، ففقدت عقلي.. نهضت مُتحمِّساً لردِّ الصاع له، أقبلت عليه مسرعاً لأدفعه دفعةً تَرَكته مُعلَّقاً في زاوية باب سيَّارته، فقد نفذت زاوية الباب العُلويّة في جمجمته من الخلف، كانت صيحته مفجعة.. هالني منظره وهو يحاول أن يُخَلِّصَ رأسه من زاوية الباب، كانت عيناه تدوران في مكانهما دون توقُّف.. إلتفتُّ إلى ناصر لأجده هارباً من المشهد، اقتربت من السائق، قلت له وشَفَتَيَّ ترتعش خوفاً:

هل أنت بخير؟!

تَوَقّفت عيناه من الدوران وتخشَّبت فيَّ بخوف.. كان الدم يَنُزُّ من جمجمته مُشَكِّلاً خطوطاً من الأحمر على زجاج النافذة وهيكل

الباب.. هكذا فعلت بي الحماقة.. أُلقيت بعدها خلف القضبان السوداء أنتظر العقوبة التي سَتَحِلُّ بي.. كنت في كامل الصمت حين كان أهله يبصقون في وجهي أثناء التحقيق، تَحَمَّلت إهاناتهم لأنني أعذر حالهم التي هم فيها، مع أنني لم أجد من يعذرني في حياتي كلها.

بعد أسابيع صدر الحكم بقتلي قصاصاً لأكون عبرةً للحمقى أمثالي، وقد بقي على تنفيذ الحكم أيام قلائل كانت كالغيبوبة.

(٦)

أنتِ صَباحُ الطُهر فَاضَ عَلَى ظَلامِ خَطيئتي
أنـتِ فـتـونٌ وَضَّـأت قـلـبـي بِـأَنـسَـامِ الأمـلْ
أنتِ مَنونٌ فَتَّشت أضلاعي تَبحثُ مُهجتي
فمضيتُ اكسو كُلَّ نَحرٍ للمحبَّةِ بالحُلَلْ

ماجد سليمان

يَرقدُ في زاوية السجن التي انحرف عنها الضوء النحاسي الداخل من نافذة أُحكمت بحديدٍ صَدئ، سجينٌ حسبته في طريقة نومه كلباً مجدوراً، ففي كل لحظة يَحكُّ أعضاءه، وينتفض ويئن.

بعد أن طُويت أسرار منتصف الليل، صحوت على صوت سُعاله، نهضت رامياً بصري إليه، رأيته وهو يُسعل كأنَّ أحشاءه ستخرج من بطنه من شِدّة السُعال، أتى لحظتها صوت صرير مفاصل باب السجن سريعة، حين دخل الحارس وألقمه عبوّة ماء على ما أظن، وحين هدأ سُعاله انحرف ضوء النافذة أكثر. لقد مال القمر الذي اختلط ضوؤه بضوء مصباح السجن المعلّق جانب النافذة.

أدار سيجارته وأيقظ بشعلتها يباس نفسي، وشاهدت وجهه عبر الثواني التي اختلسها لبثّ الروح في سيجارته؛ كان ذا ذقنٍ طويلةٍ بعض الشيء، وأجفانٍ مُتهدِّلة من حرارة الأسى، وحاجبين مغزولين. كان العَرَق قد تكسّر على أكتافه وجانبي ظهره.. ما برِح الليل يقطر سُمرة داكنة، وأنا لم أنسَ دمع مناديلي، كان عَلَيَّ أن أكون صبوراً أكثر من أي وقت مضى، أضجعت جسدي النحيل لمعاودة النوم.. لقد نامت عيناي دون قلبي.

حلمت على ما أظن أنني حلمت، بين جدران السجن السوداء ذات الصدوع والأوساخ، وصوت امرأة ينهمر عَلَيّ من أعلى، رفعت رأسي مرعوباً، كان منظراً مَهُولاً: امرأة عارية معلّقة من أثدائها بخطاطيف فولاذية، أحشاءها تتدلّى من فوق سُرّتها، كان صراخاً يَدُكُّ أرض روحي دَكّاً، لم أَتَنبّه لخيوط دمعي التي قَطَعَت أخاديد وجهي، وقفتُ فَزِعاً حاولت الهرب، لكن من أين؟.. ضوء النافذة بدى شحيحاً، أُحسّ أن أنفاسي الشديدة سَتَخْلَعُ معها ضلوع صدري من شِدَّة شهيقها.

سِرْتُ خطوتين فانزلقتُ في ماء أحدثه تَسَرّبٌ يقطر من السقف البالي، ارتطمتْ مؤخرة رأسي بأرضية السجن، صحوت من نومي غير مصدقٍ أنني كنت أحلم فعلاً، قَلَّبت بصري في المكان، ما زال ذلك الكلب المجدور ينهش بيديه أعضاءه، وأنينه ما بَرِحَ مُتواصلاً حتَّى الساعة، أُحسّ أن رئتيَّ بلا هواء كأنها معصورة

بقبضة السجّان، جاهدت أنفاسي الثقيلة لتعود طبيعيّة كما هي..
إنفتح باب السجن مرّةً أخرى، صوت الخطى يقترب من السجين الرابض في الزاوية الأشدّ ظلاماً، ارتفعت قدم السجّان اليمنى لتقطر منه بضع قطرات من بقعة الماء التي وطئتها حين دخل، ثم رَفَسَ بها جنب السجين لتأتي صيحته مُتقطّعة من بين فكيه، أرجفه صوت السجّان صارخاً:

انهض.

كح.. كح..ححح

قَبَض عليه من رقبته وصاح في وجهه:

الساعة التاسعة صباحاً سينفصل رأسك عن جسدك، سيأخذوك إلى حيث يُقتصُ منك، أيها القاتل.

ثم بصق في وجهه، ونهض ذاهباً مغلقاً الباب بحقد.

أطلت النظر فيه، أحسست بجفاف حلقي، وحُرقة تضرب أجفاني.

الكرة الحديديّة المشدودة إلى قدمه.. سرير الخشب الذي تبيت فيه الأرضة.. الجدران الأربعة العارية.. السقف الغاضب، قدماه اللتان أكلتهما الشُقُوق من جفاف السجن، كلها تمَجُّه بغضب، لقد كانت الموتة الصغرى أنفذ من الكبرى فَمَدَّت أناملها لتغلق أجفانه على آخر مشهد من فواجع الحياة.

* * *

طَبَعَ الصباح نوراً باهتاً في زاوية السجن، جَلَسَ السجين وَدَعَك عينيه بشدّة ثم نظر فيّ وقال:

ما اسمك؟ . .

. . . .

لا لوم عليك فالمرء ينسى من هو في هذا المكان.

بعد سكوت ليس بالطويل سألته:

ما قضيّتك؟

عدّل من لباسه الرث، ثم نهض واقترب مني وجلس ليس ببعيد، أخرج ولاّعته وسيجارته، وقال:

هذا السجّان لم يكن كريماً إلا بالسجائر فقط.

تصرّف غريب.

لا ليس بغريب، فهو يقدمه لي مقابل أن يأخذ هو نصفه، وذلك حين يحضره لي أصحابي أثناء الزيارة.

قرأت الرضى في عينيه، ظننت أن رائحة فمه لو مرّت على أنف حصان لقتلته.

وفي الضحى حين ارتكزت الشمس بحرقتها، انطفأ قلبه، فنقلوه ميتاً بالسكتة القلبيّة.

* * *

في سجنٍ مظلمٍ كأنه زريبة خنازير، تتقابل أجساد السجناء ككتلٍ مُتعفنةٍ، يقبع سجينٌ تحت الجدار كفأرٍ نجس، يَتَصاعد نفَسُه ويهبط، وجهٌ مجدور بالغضب، ومحفورٌ بالهموم، وصورة زوجته وأبنائه مزروعةٌ في ذاكرته.

تَفَرّست عيناه في السجين الذي يحفر في الأسمنت بقطعة معدنية صغيرة تضيء كلما ارتطم بها الضوء القادم من نافذة السجن، تأمّل القطعة وهي تُحدثُ النحت في الجدار، وكأنَّه ينحت في قلبه، أدار وجهه للباب، بَلَعَ ريقه المرَّ بصعوبة وارتخت شفته السفلى، إن الباب ضوء الإفراج، ومَمَرّ الخارجين إلى الحياة.

وقبل أن تتفجّر أضواء الفجر، تهادى إلى سمعه صوت مفتاحٍ يولج في الباب، ارتفع جفناه قليلاً، دخل السجّان ونادى بصوتٍ خشنٍ ثقيل:

أنت.

نَهَضَ وظهره يَحُكُّ الجدار الصامت خلفه حتّى استوى واقفاً، وأجاب بصوت رخيم:

نعم.

تعال..

تَلفّت في زملائه السجناء، ثم اقتاده السجّان بعد أن أحكم بمعصمه القيد الحديديّ الذي تقشّر عنه الدهان الفضيّ، سعى به

بين ممرٍّ ضيقٍ بالكاد يقف الرجل بجانب الرجل الآخر، صوت ماءٍ يخرُّ من سقوف الزنازين، راح يحفر في تجاعيد ذاكرته، وينقر منقارُ الندم ذاتَه المجلودة.

كنت أنتظر الموت ليجالسني في زنزانتي قبل أن يبتلعني، أريد أن أأتمنه على ذكرياتي، كنت أكرع أقداحه دون توقّف لكنني لم أَمُت، حاولت أن أهمس في سمعه بوصيَّتي لكنه لم يأتِ.

الزنازين.. غرف الأحياء الأموات، أُحسُّ بأجفاني ثقيلة لا أستطيع رفعها عن عيني.. صوت أقدام تصل إلى باب الزنزانة.. صوت الباب الحديدي ذي الأعمدة الأنبوبية الشكل التي أكلها الصدأ يرتطم بالجدار المطلي بالدهان الأسود من الداخل، ليحدث ارتطامه دَويَّاً أفزع بعض السجناء النائمين.

وَقعُ الأقدام يقترب مني، أريد أن أرفع رأسي فلا أستطيع، أجفاني أُحسُّ أنها مُخَاطةٌ.. يقترب الصوت.. ينخفض الجسد الذي تحمله القدمين.. شفاه تدفع أثناء حديثها لي أنفاساً أحرقت شحمة أذني وهي تهمس بهدوء:

ـ حكموا عليك بالإعدام!

يولد النور من رحم الصباح.. وفي ساحة القَصَاص جمهورٌ من المتفرِّجين والمتطفِّلين.. أقف أمام سَيَّافٍ ضخم الجثّة يلبس ثوباً أبيضَ ينتظر أن يرسم على بياضه بدمي، وفي أقل من اللحظة تُعصبُ عينيَّ اللتان بالكاد ارتفعت عنهما الأجفان قبل الصباح.

هَبَطت يَدُ السياف السميكة على كتفي اليمنى، وأجلسني على ركبتيَّ الباردتين فبدت رقبتي طعاماً طازجا لشفرة السيف.

يرفع يديه القابضتين على النصاب الذهبي.. الهدوء يطبق على الساحة، لحظة فقط ويهوي السيف على رقبتي ليذوق طعم عظمي ودمي.

الصمت يخُرس أفواه المتفرِّجين التي كانت تتجاذب خبر اللحظة، وفي أقل من اللحظة أوقفت السيفَ صيحةُ القادم من بين الجموع صائحاً ملء حنجرته:

ـ أعتقته لوجه الله.. أعتقته لوجه الله..

فتطاير التهليل والتكبير من الأفواه لتلحق به المناديل والغُتّرُ النائمة على الرؤوس.. فعادت أجفاني تُخَاطُ بالدم والدمع.

لم أُصَدِّق ما أسمع.. حَتّى راحت أصابع السَيَّاف تَحِلُّ عصابتي السوداء عن عينيَّ، فجاهدتْ أجفاني على أن تسمح لبصري بالانطلاق في الحياة من جديد.

بعد أيامٍ فُتح باب الزنزانة ذات الطلاء الأسود الذي رُسِمَت عليه بعض الخرائط الرماديّة،كان صوت صرير الحديد كأغنية الموت:

«انتظرني فأنا لن أنساك»..

وَقعُ أقدام الحارس تقترب.. ألصق كتفه بكتفي وقال:

تَمَّ الإفراج عنك..

إنَّه نَفْسُ الصوت الذي حَمَلَ إليَّ خبر قَصاصي، هي تلك اللكنة التي جاءت برائحة المنيَّة لي قبل أيام؛ تباشرت كثيراً كأنني لست الذي أُعتق قبل أيام في ساحة القَصَاص، رفعت يدي أتحسَّس ما تركته حرارة العصابة التي دارت على رأسي مغيّبةً بصري عن الحياة قبل الممات، لمست آثار تَسلّخ الجلد بهوادة، أصابعي تتحسَّس الأماكن المنسلخة حول أجفاني.. لكن الحارس لم يعطني الفرصة لأن أُهيّئ نفسي أكثر للعمر الجديد، دَقَّ بقبضته كتفي قائلاً:

هل أَلِفت البقاء هنا؟!..

التفتُّ إليه بسخرية ثم حملت حقيبتي واستقبلتني الدُّنيا مرَّةً ثانية.

أخذت أتلمَّسُ طريقي خارجاً من الموت إلى الدنيا، أُكرِّرُ على نفسي:

لقد أعاد الله الفرصة كي أعيد حسابات حياتي..

لم أذكر مِن مَن أحببت لقاءهم بعد أن بُعِثْتُ للحياة من جديد إلا «حسام» شقيقي الروحي.. ذاك الفتى النحيل، ماضٍ يؤرقني بقداسته، عُصارةُ قهر الحياة وتجريحها.. إنه الفجيعة على هيئة إنسان.

(٧)

هَـيَّـا ازرعـي لَـيـلَ الأزقّـةِ بـانـكـسـارات الـجَـوَى
لأمـدَّ فـنِـجـان الـرحـيـلِ إلـى زَمـانٍ مُـضـمَـحـلْ
أَرضُ الـضُـلُـوع تَـدُكُّـهـا قُـطـعـانُ خَـيـبـةِ ظَـنـنـا
ورُفَـاتُ قَـلـبـي لا يُـهـدهـدُهُ الـتَـوَجُّـدُ والـقُـبـلْ

ماجد سليمان

لطالما كان «حسام» صديقي وصندوق أسراري المغلق، إنه التجربة التي تَتَسَرَّبُ في أعماق من عاصروه كزجاجٍ مطحون.

مات أبوه، وهو نطفة في رحم أمه، كان يسكن معها في نفس حَيّنا، هذا الحيِّ القابع خلف قضبان الحرمان، تَزَوَّج من فتاة تُدعى «نجاح» لكن زواجهما لم يَدُم إلا عامين يابسين، قامت هي بخلعه ظلماً بمساعدة أهلها، لأنها لم تَتَحمل فقره وبأسه.

تحرّك على مهل، يهزُّ أغصان الشجر ويرجم ثماره، صورتها يباركها بشفتيه السمراوين كل صباحٍ نديّ.. مضى تحت غضب الطرقات الأسفلتية كمتسولٍ عجوز، يُلوّح بيده لأملٍ غاب، دخل بيتهم المستأجر، وجد أمّه تتأمل الشبّاك، تجلس على كرسيٍّ مطليٍّ

بلون فضيٍّ باهت، شدَّ على قبضته، اتكأ بكلتا يديه على مقابض الكرسي المعدنية ذات الخدوش الصدئة، فاندفع بها تجاه الباب، بابٌ تنادي من درفته شمسٌ مغزولةٌ بنداء الصباح، انتهى واقفاً بها أمام الباب، عاشقٌ تكتبه الشمس، راحت أمهُ تمشط بعينين جفَّ نصف بصرها الشارع والعتبات، أمالت رأسها يمين الباب ويساره، حول بيتٍ محاطٍ بسنابل اليأس، أتاه سؤالها بصوت مخدوش:

ما خبر نجاح؟

أجابها وكأنَّ صوته خرج من أعماق صدره:

ستعود بعد أيام.

منذ البارحة لم يداعب الوَسَن عينيه، أمسى غامساً أهدابه في صورتها المحاطة ببروازٍ خشبيٍّ شبه مفتَّت.. فكحلها ما بَرِحَ في عين الفجر.

بعد طلاقها منه هَامَ على وجهه ليعقُدَ صَدَاقةً مع جدارٍ طينيٍّ يمثل في زاوية الحارة، يعاقر سيجارته التي ظنَّها المخَلِّصَ من دُنياها، لا يملك سوى أيجار البيت الشعبيّ الذي تجلس فيه أُمُّه المعاقة التي لم تعلم عن طلاقهما.

أعرفه لا ينافسه في السذاجة وصفاء السريرة أحد، فقد ذَكَر لي بنفسه حين كان صغيراً، أنه سَارَ في جنازة جدِّه إلى المقبرة، وحين أُهيلَ عليه الرمل قال في قرارة نفسه:

ـ كيف لجدي أن يَتَحَمَّلَ كل هذا الحمل من الرمل؟!

كان مشهداً مُضحكاً مُبكياً، يا كم عَجِبتُ من جهله وسذاجته في بعض أقدار الحياة، مع إعجابي لأغلب تأملاته في طريقة تعذيبها للبائسين أمثالنا.

أعرفه جَيِّداً، هو روحٌ ملأى بالطيبة، يحمل بين ضلعيه قلباً مغموساً في المسامحة، في لسانه تأتأة وَرَثها من مكابدة الحياة مُذ كان صغيراً، لقد جلدته الظروف حَتّى رمى بنفسه في نهر المحرَّمات عامداً متعمداً، إنها الظروف التي عَجِزَ عن صَلْب عُودِه أمامها، تجمَّعت عليه وأتت تترى: اليُتم المبكِّر، والفقر المدقع، والبؤس الملازم له ولأمه، والقهر من القِلَّة والحاجة.

ذات يوم رافقته إلى المدرسة الثانويّة ذات المبنى المستأجر ليأخذ نتيجة اختباراته المنزليّة، وحين أقبلنا على الجدار الذي أُلصِقَت عليه النتائج، ضَغَطَ بسبَّابَتِه اليمنى على ورقة أسماء الناجحين، ثم أخذ يسحب باطن أُنملته إلى أسفل الورقة ببطء، وعيناه تتفحصان الأسماء الواحد تلو الآخر، حَتّى تَوَقَّفت سَبَّابَته عند آخر اسمٍ في القائمة المبتهجة، ثم جَمَعَ أصابع يده اليمنى لتأخذ شكل القبضة الحاقدة، فضرب بها باطن ورقة الأسماء تاركاً تجَعُّداتٍ مُتناثرةً في باطن الورقة المظلومة، وشقوقاً حَادَّةً على أطرافها، مُعلناً احتجاجه على سقوط اسمه عمداً.

قبضت على يده قائلاً:

ـ كفاك جَلْداً لنفسك..

* * *

كان يسكن بجانب بيتهم الشعبيّ المستأجر بيتٌ مُسلحٌ من الطوب والحديد، كان يراقب هذا البيت من نافذته حين يَخِرُّ سقف بيتهم بسبب المطر، كان يُهَنِّئُ أصحابه بسقفهم الذي آواهم من المطر بينما هو يجاهد الثقوب التي تَخِرُّ على غرفة أمه المعاقة.

في بيت جيرانهم فتاة أربعينيّة لم ترغب الرجال من أجل تعليمها، افتتن بها رغم الفارق العمري الكبير بينهما.. أمضى يراقبها كثيراً في صباح المدرسة وهي تصعد سَيَّارة الباص الذي يُقِلُّها إلى الجامعة، بينما كنت أنا أصادف منال وهي تمضي مع سَيَّارة الفان التي تسافر بها كل فجر إلى الهجرة التي تعمل بها معلِّمة.

إنها الأربعينيّة التي كان شيطانه أول من سانده ليحاول الالتقاء في الحرام. أعرف حسام رغم كل صفاته وأخلاقه الطاهرة لا بُدَّ أن يُدَنِّس هذه الرقعة البيضاء ولو ببقعة سوداء صغيرة رغماً عنه، فقد يصبح «الزنا» بالنسبة له المعصية المقدَّسة والانتقام المبجّل.

أتاهُ صَوتُها من نافذتها المقابلة لنافذته.. حَسَّ بوبل أنوثة صَوتِها على أرض أذنيه المجدبة من وبل أصوات النساء.. مرَّ على

سمعه كملكٍ يُغدقُ العَطَايَا على وُزَرَاءِهِ الخَوَنة. . سعى إلى النافذة بهوادةٍ وبخطىً تُطبطب على سيراميك غرفته التي تَحَوَّلت إلى صندوق مملوءٍ بأحلام وآمال العزوبية.

طَلَّ بحذرٍ وبعينين أكلتهما اللهفة لرؤية صاحبة الصوت المائيّ الذي انساب في سمعه الجاف. . ذاك السمع الذي طالما تمَنَّى من أي أنثى أن تهمس فيه ولو بحرفٍ ساكن.

رآها تُقلّم أظفارها على حافة النافذة. . إلتقى بأهدابها فما أن ارتَدَّ بصره المتخشّب إلا كان شباك النافذة الزجاجي مغلقاً وقد تركت بَصْقَتها مُلصقة عليه لتكون تذكارا له.

وبعد أيام كان ينتظرها على الرصيف المقابل لجامعة البنات، كان مُتَشَقِّقاً من الحنين، يَتَصَبَّبُ انتظاراً وتَرقُّباً حاراً لوصولها. . بوكيه الورد الأحمر الماثل خلف ظهره النحيل. . تباطأ حضورها أيضا.

كان باهت البشرة كأنه مولودٌ من رحم الشقاء، فالشوق المتغلغل في أوردته أتلف قلبه المنتفض من تحت أضلاعه الخربة، يضرب بكعبه الأيمن صلابة الرصيف المدهون بالأسود والأصفر. . إلتوت روحه على طيفها الذي تراءى له عن كَثَب. . أقبل إلى طيفها كالخارج من خرابات اليأس مسحوباً بحبل أملٍ شديد، فارتطمت جبهته العريضة بجذع شجرة تُزَيّنُ الطريق فَصَحَى كنائمٍ

نُضِحَ في وجهه الماء البارد، قَلَّبَ نظره المائع في الورد المتفتّت من عَرَقِ يديه طيلة الانتظار، أطال النظر دقائق عابرة ثم ألقى به على الرصيف المتَكَسِّر تاركاً خلفه أمنيات مُزهقة، وموعداً أخلفته ذات القد، ووردا متفتّتاً وَعَرق يدَين استحال إلى ملح يأكل بقايا الانتظار.

ثم غاص في الطرقات موجعاً، وبعد ساعات أسند جسمه النحيل إلى جذعٍ أكله اليباس ولَبِسَهُ العطش، وكانت الشمس تشير إلى مقبرة المغيب بقرصها المنطفئ لحظتها.. دَسَّ في جيبه يده اليمنى التي ارتسم على ظهرها خرائط بعض الحروق التي نالت من يده وهو صغير.. أخرج منها علبة السجائر الفاخرة.. فتحها وَسَحَبَ إحداها، وبدأ يَتَأَمَّلُها كعاشق يغرز عينيه في جسد فاتنة تعبره بثقة .. قَلَّبَها بين سَبَّابته والوسطى.. فتح شفته الغليظة وأولج بعضها وقبض بشفتيه عليها.

دَسَّ يده اليسرى في جيبه، وأخرج وَلاَّعة السجائر الزجاجية التي تَتَوسَّط بين اللونين الأخضر والأزرق، دعس بإبهامه على زنادها فانطلق الشرر ليكوي به ذيل سيجارته ثم غاص في ظلام الشارع مختلياً بسيجارته.

وَقعُ أقدامه لا يُوقض إلا القلوب الحزينة، لم تُحدث خطواته إلى منتزه الحيارى صوتاً يهبط في آذان الهاجعين، وحين لمست قدمه اليسرى عتبة المنتزه كان الحارس أول شخصٍ يصافح بصره

المتعب، أخذ نفساً طويلاً من سيجارته حَتّى احترقت بالكليّة، ثم أدارها بين إبهامه وسَبَّابته ثم أسلمها للإسفلت ليلحفها نعله المتنتّف، وحين أخذ الدخان جولته الطبيعية في صدره نفثه في الهواء كسجينٍ أطلقوه من سجنه الطويل، فشعر بالحارس وهو يَسعُل بشدَّة، وأيقن أنه فعل فعلاً مشيناً، صاح الحارس في وجهه:

أعاقلٌ أنت.. أم مجنون؟

قبض بأسنانه على شفته السفلى خجلاً وأسفاً على فعلته الغبيّة وقال:

عذراً سَيّدي لم أرك جيداً أنت تعرف أن هذا المكان لا يرتاده إلى أمثالي من حيارى المجتمع.

أوووه.. حسناً حسناً.

أرعبه عبوس الحارس في وجهه فتمتم بصعوبة وبالكاد خرجت الكلمات:

أأأرغب ارتياد المنتزه لأنفِّس عن نفسي؟..

أجابه بعد أن حملق في مظهره:

ـ حسناً.. أدخل، وإياك والشغب أو الفوضى..

وحين دخل المكان سمع شتيمة الحارس بصوت خافت، فقفز حاجباه وأخذ جفناه شكل الكرة وجحظت عيناه الرابضتان في حجر جمجمته، وانفتح فمه بضع سنتمترات.

بعد وقت ليس بالقليل، خرج من بوابة المنتزه المتخدِّشة ككهلٍ تراكمت على ظهره السنين وجَلّاد فاقته يسير خلف.

محبوبته الأربعينة لم تزل أطيافها تَدُّقُ في روحه الشفافة.. أدار مُحرِّك السيارة التي اشتراها بالتقسيط واتجه إلى منزله المستأجر، وهو يتمتم ويمضغ حروفاً مطلسمة.

وعلى إحدى جهات المدينة يَتَربَّع مقهىً يتزاحم الموجُوعون على بوابته الخشبيّة، حاملين الأسى السارح تحت ألبستهم الوطنيّة، ومُخَبِّئين اليأس من المستقبل تحت أشمغتهم الحمراء مُثَبِّتين كل ذاك اليأس بالعقال الأسود الراقد فوق تلك الأشمغة.

من إحدى البوابات المتخدِّشة للمقهى يدخل حسام الشاب النحيل.. ثوانٍ حَتّى غادرت روائح الشيشة روؤس الجمر مغازلةً أنفه المسلول، كالداعي إلى حيث يتبادل مع نفسه هواجيسها وَوَجعَها العتيق.

قَصَدَ إحدى الجلسات المنزوية في إحدى زوايا المقهى.. أزاح أحد الكراسي البلاسيكية إلى حِدة، وألقى بنفسه عليه رافعاً يده اليمنى للنادل الذي أتاه فارداً بين أصابع يديه قائمة المعروض لديهم من أنواع الشيشة والمشروبات الساخنة.. رَفَعَ رأسه للنادل:

ـ واحد بحريني..

ـ شيء ثاني..

ـ لا . . لكن كُن في عُجَالة . .

أطبق النادل أوراق العرض على بعضها تاركاً رائحته النتنة تدور حوله كخُفَّاش مغارة .

أخذت خيل أفكاره تعدو في بيداء حياته الجدباء . . مشاهدٌ من أيامه الصفراء . . مشهدٌ تلو مشهد، والوقت يحرق أوراق الدقائق ورقةً . . ورقة .

سَرَحَانٌ طويلٌ سافر به لدقائق . .

لحظات . . أيقظه من سَرَحَانه صوت قرع الشِّيشة بجانبه، وحركة النادل الثقيلة .

لم تكن جارته الأربعينية بأحسن من بقيّة النساء اللاتي يَصْغُرنها أبداً، فهي أيضاً ذاقت من نفس الكأس الذي ذاق منه بقية أهل الحارة .

لقد قَضَمَ النسيان من عمرها أربعين خريفاً، أقامت في كنفه أحلامها الخضراء بتفاصيلها البنفسجيّة، وفي صباحٍ رماديّ المزاج ألصقت وجهها بمرآتها العتيقة التي انصدعت زاويتها السفليّة اليمنى، والتصق من أعلى حدودها اليسرى بقايا لروجٍ داكن الحمرة تعاقب على بقائه بكاء الليالي المبتورة من عظام حياتها الهشّة، وبأصابعَ سكرانةٍ خلخلت شعرها الكستنائي، وقالت لنفسها وهي

تمسح خَدَّيها بقطعة قطن ورديّة اللون، صغيرة الحجم قد التهمها البَلل:

ـ ما أضيق قبر العنوسة على فتاةٍ آثرت الدِّرَاسة على الزواج.

فارتَعَشَت شبابيكها حزناً على ما لفظت به شفاهها المجافية لحروف الأمل، ثم استدارت وَالجةً مَمَرَّات منزل أمها الأرملة مُيَمِّمةً إلى صورة أبيها المعلَّقة على جدار الصالة.. صورةٌ بها ميولُ شَبَهٍ ملاحظ أودعها المصَوِّرُ في برواز تافه النقوش والألوان.. اقتربت من الصورة وأسندت جسدها الذي ما زال مليئاً بالأنوثة على يدها اليمنى متكئةً على طاولةٍ رفيعةٍ بعض الشيء، فراحت عيناها المفارقتان لظلام الكحل تجريان على تجاعيد وجه أبيها وحادثت الصورة بأسف:

ـ ليتني أطعتك لحظتها يا أبي..

(٨)

ـ الأمنية: ظمأٌ لا يقطعه إلا ماء السعي.
ـ الوداع: تابوت المُحب.
ـ مجادلة السفيه سَفَهٌ.
ـ لا تؤجِّر عقلك لقناعات الآخرين.

ماجد سليمان

لقد ضَاعَ دَمُ عشق حسام في دروب النسيان. عاش مُفَتَّتَ القلب، لم يُطق أقبية الصمت الرهيبة.. لديه إرادة في أن يقذف ألمه خارج أسوار نفسه المسحوقة بفراقها.. راح كالسائر من بين حُفَر النار أو كالغائصة أقدامه في طينٍ ساخن.

اجترته المآسي من معصمه، وراح يتخبّط في ليلٍ أعمى، مكتوياً بحزنه، لأنَّ لا أحد يرى قعر روحه الظمأى، لقد قتلته نجاح بدم باردٍ، لم يعد ثمَّة امرأة يدفن رأسه المرضوض بالهموم في ترائبها.. هو الآن تائه يمضي في أزقّة النسيان.. عبدٌ تَسُوقُهُ سياط الظروف، وتركله الحاجة ليُلقى في شوارع الغضب.

أما نجاح ففي ضُحى يوم طلاقها منه، تَوَقّفت سيّارة الأجرة

أمام منزلها، انفتح الباب الخلفي الأيمن الذي تملأه الخدوش والأوساخ. . داست بحذائها البني الوطني الصنع الإسفلت المتكسّر. . انفتحت نافذة السيارة الأمامية للراكب لتقذف على مرتبتها المتشقِّقة أربعين ريالاً قيمة توصيلتها، ثم أدارت للسائق ظهرها النحيل، ومضت قاصدةً باب منزلها المزخرف، وما إن اكتمل للسائق قوامها من الخلف حَتَى صاح بها وعيناه تلتهم جسدها المشتعل:

خمسين ريال مدام.

تَوَقَّفَت ثم التفت إليه ثلاثة أرباع الالتفات وقالت بصوت تُبَلِّله الأنوثة:

هذه المسافة أدفع دائماً عليها أربعين ريالاً. .

وغمزت بسهم من عينها الكحيلة الناعسة، فانفتح فمه حَتّى دقَّت عظام فَكَّيه إلَى أن أولجت المفتاح في قلب الباب، ودخلت كغانية ترتدي كامل ثقتها بجمالها.

أدار السائق وجهه القبيح إلى الأمام، وانطلق بقُوَّة تاركاً الغبار والحصى يتطاير خلفه.

دخلت غرفتها. . أسرعت بِسَبَّابتها اليمنى لتشعل النور لترى أثاث المكان وكأنه يُرَحِّب بها، ولجت بهدوء المحبين، أخذت تذرع الغرفة بلا شعور، لم تُصَدِّق!. . أهي تحلم أم أنها فعلاً أصبحت «مطلَّقة»!.

عندما ملأ المصباح بنوره رئة الغرفة، كان أول ما رأت أريكتها الخشبية، تُركيَّة الصنع، ذات اللون العوديّ، ملقىً عليها بعض مناشف صغيرة، ويبدو واضحاً لها خدشٌ طويلٌ على إحدى أرجل الأريكة، وبجانب سريرها كوميدينةٌ صُفَّ على هامتها تحفٌ بلاستيكية، وإطارٌ لصورة أبيها المتوفى، ومزهريَّةٌ قد انصدع خزفها، تُطِلُّ من فمها سبع ورداتٍ صفر إحداهنَّ منتوفة الأوراق.

قامت بفتح أدراج الكوميدينة فإذا بها بعض الأوراق، وعلبة مكياجٍ فرنسية الصنع قد فُقِدَ غِطائها، وبعض أقلامٍ قد جفَّ حبرها، وقصاصات لمجلاتٍ قديمة قد تلاشت بعض ألوانها.

جلست على طرف سريرها الأيمن، وراحت يدها تمسحه، وكأنها تمسح رأس يتيمٍ أو مسكين، تغازل كشاكيشه المتدلية مع أطرافه، وتحاكي ألوانه الممزوجة ببعضها البعض، وتُسَلِّي أناملها اليمنى بثقوبه المتفاوتة الحجم، تقبض بكفها وتردد:

ـ وأخيراً.

ثم قَفَزَت من فوق سريرها، وأقبلت على دالوبها الفردي، الذي تَقَشَّرت ألوانه، وفُقِدَت إحدى أدراجه السفليّة الصغيرة، وبانت على واجهته بعض الرضوض التي كان يحدثها أبناء إخوتها وأخواتها الصغار عندما كانوا يتواجدون في غرفتها بعد زواجها المنبوذ، ففي أغلب بيوتنا نحن السعوديين، تنتقل ملكية غرفة الفتاة

المتزوجة إلى شخص آخر، وذلك قبل زواجها بفترة ليست بالطويلة.

حين التقت بخشب الدالوب، نثرت على واجهته قُبلاتٍ حارَّة تاركةً على خشبه المطلي بدهانٍ بنيّ آثار الرّوج الشاهد على احتراقها وشوقها لغرفتها، ثم أدارت ظهرها للدالوب.. فالفرحة لا تسعها.

تسريحتها الصغيرة بحاجةٍ أيضاً إلى وبل حنانها وهطَّال شوقها.. سعت إليها بهدوء، فهي لم تعاملها كما عاملت بقية أغراض الغرفة، فتسريحتها تُقلُّ على كتفيها المخدوشتين بقايا عطورات مُقَلَّدة الصنع نفد أغلبها وضُيِّعَت أغطية بعضها.. وقفت لتقوّم عينيها بوخز صورتها المطلَّة عليها من المرآة.. مرآةٌ خُطَّ عليها بقلم كُحلٍ عريض عبارةٌ تقول: «زواج سعيد».. كانت قد خطَّتها ابنة عمها لحظة خروجها إلى بيت زوجها.

رفرفت أصابع يدها اليمنى لِتَحُطَّ على حافة التسريحة، لتقوم أظفارها الطويلة بِحَكِّ ظهر تسريحتها.. وأخذت تهذي:

مرآتي.. لقد سهرتُ أقضمُ تفاحة الزمن المخلوع من عمري الشجيّ مرآتي.. لقد شربتُ من خمرة الوجع حَتّى ثملت، والآن.. أَزُفُّ إليكِ ريحان البشرى.. لم يعد سهم الذكريات يقتفيني، ولم أعد أريد أن أُسمع المدينة صوت الوجع.

سكتت برهةً قصيرة ثم أضافت:

ـ أيها الصبر.. ما أمرَّك على ريقي، كم كانت أيام زواجي تمدُّ لي فوق جناح كل ليلٍ رغيف العزاء على صفيح العمر اليتيم.

تَوَقَّفت خناجر أظفارها عن العبث بظهر التسريحة قليلاً، ثم سحبت أصابع كَفِّها محدثةً صريراً خاطفاً من باطن أصابعها.

كان الطلاق بالنسبة لها مولداً جديداً. . تتناسل الأفكار في بالها الفتيّ:

سأعيد ترتيب غرفتي.. لا.. لابدَّ من إعادة تعتيقها، ورسم جدرانها من جديد.

تزاحمت حمامات الأفكار بين يديها، فلم تعد تدري كيف ستبدأ، وبما ستبدأ، فهي الآن تريد أن تشطب ماضيه من صفحات حياتها. . لديها رغبة مُلحَّة على أن تضع تاريخه العابس تحت كعبها المخملي، وتعلن دفن جثَّته في سابع النسيان، وبالإضافة إلى مهمَّة طارئة لإتمام مراسم الخلاص من أتفه أمرٍ يُذَكِّرها به.

استدارت ناسيةً كل ما خلفها من ذكرى الوهن، لتقذف بنفسها على السرير المجاور لنافذتها، وراحت تلهو بخصلةٍ من شعرها الليلي، وتُلصِقُ عينيها بالسقف الجبسي الأبيض، وتُدَقِّقُ في زخارفه المتموِّجَة، وألوانه الشاحبة من آثار الزمن.

بعد لحظات انسلخت من جلد الوقت حيث كانت لاهيةً

بخصلة شعرها وعيناها تتجولان في السقف، إذ انطلق رنين هاتفها النقَّال في فضاء غرفتها الصغيرة، وَتَوَزَّعت ذبذباته المغناطيسيّة كقطعان الظباء، لتنحشر في حدود مربع المكان.

نهضت والتقطته من فوق تسريحتها القابعة بجانب باب الغرفة، رقمٌ لأول مرةٍ يغزو هاتفها وَيُطلُّ عبر شاشته الضوئية، لكزت زرَّه الأحمر، وعادت تَتَأمَّلُ بقايا غرفتها.

* * *

وبعد شهور داست بكعبها الإيطاليّ سيراميك البوابة رقم ٧ لتلج داخل السوق الكبير، تتبعها أو تكاد تلاصقها من اليمين صديقتها «نورة»، كلاهنّ تلبس عباية وطنية الصنع، يظهرن قليلاً من فتحة العينين، نستطيع القول إنهنَّ محتشمات.

مَمَرَّات السوق يملأها التشجير الصناعي، ويُقبل البخور عليهما من كل جانب، وذلك بعد أن عبرن ممرّ دكاكين البخور والعطور، لتنعطفا يميناً للبحث عن محلٍّ شهير للملابس النسائية الناعمة.

ـ هذا هو.

هذه الكلمة حَلَّقت من بين شفتي «نجاح»، لِتُدَقِّق «نورة» بعد ذلك بالإشارة إلى المحل قبل دخوله.

محلٌ شهيرٌ تعلوه لوحة مستطيلة الشكل مصنوعة من المعدن القصديري الرقيق، إضاءتها متوسطة السطوع، تملأ بروازها

مصابيح صغيرة الحجم تشتعل وتنطفئ عشر مَرَّات في الدقيقة الواحدة، باب المحل له درفتان زُجاجيَّتان شديدتا الصلابة، أطرافها من الحديد الوطني المتين، تطلق لمعاناً خاطفاً كل ما أصابها الضوء من أي جهة.

دخلتْ لتُنعِّمَ جسدها الغضَّ بما طاب لها من اللباس الذي قلَّ ما كانت تجده عند طليقها مُتوسّط الحال «حسام»، كان المحل يَغُصُّ بصنوف الألبسة الخارجية التي تعطي جسد المرأة عبوراً آخر إلى مزاج الأزواج اليائسين من جمال الخليجيات، وألبسة داخلية جَذَّابة شديدة الإغراء، محظورة البيع بشكل علني بعكس الملابس الخارجية.

غمست يدها الحنونة بين الألبسة المعَلَّقة على الشناكير المدقوقة في أحد جدران المحل الجانبية المقابلة للمحاسبة.. وأخذت تجوس بأصابعها الحليبية أنواع الأقمشة وطريقة موديلاتها.. بينما صديقتها «نورة» تُحَدِّقُ بعينيها الخاليتين من الكحل في أماكن مُتَفَرِّقة من زوايا المحل.

البائع الذي في المحل من الجنسيّة الآسيويّة، له بطنٌ زائدةٌ بعض الشيء بالإضافة إلى قِصرٍ في قامته العريضة، وله شعرٌ أسودُ يبدأ منبته من منتصف هامته الصلعاء، يضع عليه كريماً آسيويّ الماركة تفوح رائحته في فضاء المحل.. يلبس قميصاً برتقالي

اللون عليه خطوطٌ سوداء اللون تتسابق من أعلاه حَتّى تتشابك في النقطة التي قبل الحزام.

يقف هذا البائع خلف جهاز الحاسوب المهترئ.. تَتَجوَّل عيناه في عباءة نجاح التي تبرز القليل من جسدها، لِتَستَقرَّ بكامل لهفتها على سيراميك المحل المضيء، وذلك بعد أن اصطدمت بأحد الزبائن الداخلين للتسوّق.

وأخيراً.. وقعت يَدُها على بلوزة فوشية اللون، مليئة بكشاكيش بارزة من أسفلها، يخترق ظهرَها فتحةٌ مُثَلَّثة الشكل مبتدأة من الأعلى حَتّى منتصف المقاس تماماً.. إلتفتت له ليخرج صوتها كأنه تغريده:

ـ لو سمحت، بكم هذه؟

دفع البائع بصره اللاهث نحوها:

بتسعين مدام.

وما هي إلا دقائق حَتّى انتهت من شراء ما أرادت، ثم أهدت رخام إحدى محلات العطور قُبلةً من كعبها الأنثوي، وقد أحدث طرق كعبها ما يشبه الموسيقى الملقاة في غدران سمع العاملين.. لتلتفت الأعناق إلى حيث انطلقت الموسيقى من تحت أقدامها.

من البوابة رقم ٤ يدخل شابٌ حنطيّ البشرة.. مُتوسِّط الطول.. له عينان غائرتان كأنهما بئران ناشفتان.. هزيل الجسم..

مصبوبٌ اليتمُ عليه حَتّى أغرقه.. تكاد الشفقة عليه تتقافز من أعين المارين به والمقبلين على نفس طريقه التي يتسكَّع فيها.

دَلَف إلى أكثر من محل يريد بُغيته.. لم يجدها.. فرمق آخر محلٍ علَّق على بابه الأمل في الحصول على ما يريد عندهم.

أقبل عليه من قريب، ووقعت عيناه الغائرتان على تلك الظبية ورفيقتها، وكأنهما تذرعان المحل ذهاباً وإياباً.. أَحسَّ أن الظبية ليست بغريبة الحسن عنه.. رَكَّز نظره جيداً.. حدَّق طويلاً.. ثار دخان الغيرة من صدره الفَوَّاح بحِبِّها الشارد عنه.. إنها غصن البان.. إنها الماء الزلال.. إنها من فَرَّت من فَقرِهِ المدقع إلى غِنى أهلها.. إنها التي حاول طمس غرامها من صفحة ضلوعه ولم يقدر.. إنها التي أهدته قَدَح الخُلع ليشربه.

ـ نجاااح..!!

انطلق اسمها من بين فَكَّيه كصقرٍ شارد.. وَجَعٌ يَتربَّعُ على قلبه الصَبِّ.. أوتار الهوى تدندن بلطف.. الوقت يخلع عباءة الحقيقة أمامه.. بلابل روحه البائسة غَنَّت في مفاتنها الرقيقة.

ـ نجاااح..!!

مرَّة أخرى بالكاد انفكت حروف اسمها لتُعلِنَ ميلاد الغرام من جديد.. اسمها أذاب شفتيه الغليظتين.. بلَّل رداءَ قلبه المصلوب على خشبة ذكرياتها..

تَقدَّم خطوتين قصيرتين.. أيدخل المحل الذي أضاءته بوجودها بين جدرانه التي بدأ يَشُكُّ أنها تغازلها، أم ينسحب بأذيال الهزيمة؟؟..

نجاح.. طيفٌ لا يفارق أجفانه اليابسة، وحلمٌ عجز أن ينهض منه.

نجاح.. الزوجة/ الطليقة.. الوجع والغرام.. الظمأ والرواء..

أخذ يُسائل نفسه:

ـ أتهرب الظباء؟!.. أيحطب الجذع الهزيل؟!.. أيختبئ القلب اليتيم خلف غرام فاتنة؟!

التَرَدُّدُ بَلَّلهُ حدَّ الغرق.. تقافزت الأسئلة من رأسه على رؤوس أصابع أقدامه السمراء:

ـ أدخل.. أو لا أدخل؟.

أوجس الكثير من الرهبة المطلَّة عليه من باب المحل، وحين التقت العينان قبل القلبين المفارقين أثناء خروجها من المحل.. دقَّ قلبها سهم الفجاءة، فانتفضت شفتاها قائلةً:

ـ حساام..!!

الأرض تدور من تحت قدميها، والمكان يحمَرُّ ويخضَرُّ، والأهداب تنقر بعضها بالعتاب بينما صديقتها «نوره» لم تكترث لما يجري خلفها حين ابتعدت عن المحل قرابة العشرة أمتار.. حَتّى أَحسَّت بفقدها نجاح.. لتلتفت وترى مشهد العتاب الطويل.

تسَمَّر كلٌّ منهما في مكانه.. مفاجأة نفخت حضرتها في فضاء المكان الصغير.. تكاد شفتا حسام تُطلقان حروف الشوق قبل الملام.. بعكس «نجاح» التي نطقت عيناها بدلاً من شفتيها قائلة في صمتها المثير:

ـ..كم كان صعباً خلاصي من كونك الفقير..

بادَرَها حسام بصمته:

ـ «.. ليلة الرحيل أمسيت أَعضُّ بأسناني على أسناني، ألعق لعاب الوجع المتصبِّب من ثقوب أيامي الداكنة.

الفقر.. لو كان رجلاً ألا يَستَحقُّ القتل؟!..

الهجر.. لو كان عِرقاً نابضاً.. ألا يستحقُّ القطع حَتّى ينزف آخر قطرة دمٍ فاسدة منه؟!.

أبكي يتمي وفقري، وهجرَكِ مضجعي.. أُسند ظهري إلى سارية الأمل الهزيل، أموت وأحيا ألف مَرَّة ومَرَّة، وفي يقيني أن الممات أرأف على الروح من حياتها من غير عينيك..»

رفرف الصمت بينهما لتدير له ظهرها مُدبرةً إلى حيث لا يَعلم.. بينما تهاوت من باله كل الأمنيات البيضاء، والآمال الخضراء محاولةً أن تمسك بطرفٍ صغيرٍ من عباءتها الزكيَّة قبل أن تلمس بعد هُوّتها رخام أرضية السوق.

لم تكن الصُدف بخيلة على حسام.. فبعد سنوات التقت عيناهما في إحدى أزقة الأسواق الشعبية القديمة، ما زال هناك

خَيطٌ من الألفة لم يبرح عين كلٍّ منهما، وما زالت الأعين تعرف بعضها رغم ضباب الانفصال، قال في نفسه:

أليس لي بعد السير الطويل في صحراء الجفاء من عودة؟!.

بادرته عيناها بوخز جنب الإجابة:

الضرب في الميت حرام.

صدَّ بوجهه تجاه البائع المقابل له.. ناوله نقود البضاعة، وذهب بعيداً.

سألت عنه البرَّ والبحر فقيل لي أن أحد سكان السواحل شاهده ذات مرّة ولكنه لم يؤكد شخصيته، أهو حسام أم غيره، حين كان عقرب الساعة يلدغ الواحدة ليلاً، ثَمَّة شابٌ يرجم بالحجر جسد البحر، ويقذف بالشتائم كل موجةٍ تصل إلى قدميه الحافيتين، يحاول بشتى الطرق إيصال صوته الغاضب إلى مسامع طُغاة المدينة، التي تقبع خلفه تماماً، توقَّف عن قذف الحجارة قليلاً، ثم رَمَقَ المكان الذي حوله بعينيه الهزيلتين، لقف حجراً متوسط الحجم، ثم عاود رجم جسد البحر.

وبعد سويعات من ليل الصيف القصير، تُطلُّ الشمس برأسها من خلف البحر المرجوم بالحجارة والشتائم من ذاك الفتى، وقبل أن تشارف على المدينة، كان هناك جسدٌ مُلقى على سجادة الشاطئ، فتًى في الثلاثينات من عمره، غَطَّتهُ شراشف النوم والإرهاق عن إكمال العَبَثِ بمشاعر البحر ليلة البارحة.

(٩)

ـ الحبّ: علاقةٌ تطفو فوق ماء الحياة.
ـ أنا لا أتسوّلُ المحبّة، ولا أطلب إعانة الأعداء.
ـ ابتسامتي في وجه عدوّي إقرارٌ مني بتفاهته.

ماجد سليمان

لتمضِ الرياض في تعذيب أبنائها ما شاءت.. ففي ناحيةٍ منها، تَمُرُّ سَيَّارة من نوع (فان) قد أكل الصَدَأُ أطرافها، تسير على إسفلتٍ امتلأ بالشقوق والحفر، والطريق لا يَتَّسعُ إلا لسَيَّارة، ونصف السَيَّارة، كانت هذه السَيَّارة تُقلُّ مجموعة من المعلّمات من داخل المدينة إلى ٢٠٠ كيلومتر خارجها بحجّة التعليم.

«منال» بكالوريوس E، مطلّقة وأم لطفلين.

«سمر» دبلوم حاسب، عانس فوق الخامس والثلاثين ربيعاً.

«وضحى» معهد معلّمات، عُقد عليها ثم طُلِّقت بسبب التدريس، وهي الآن عانس فوق الثالث والثلاثين ربيعاً.

الطريق طويل، جِمَالٌ لا تكفُّ عن عبوره كل دقيقة، وسائقون

مُتَهوِّرون، وأوديةٌ تنهال عليه من كل جانب، والسائق يأخذه النعاس بين الفَينةِ والفَينةِ، وشبح الموت يلوح تارة فتارة، وكل معلّمة تقبض بيدها على قلبها الغضّ حَتّى لا يقع من الرعب.

تقف سَيَّارة (الفان) المتهالكة أمام باب المدرسة المنخلع، تنزل النسوة وكل واحدةٍ منهنَّ قد أكل طائر الخوف من جسدها طِوال الطريق حَتّى شبع.

الواجهة الرئيسية للمدرسة الحكومية عبارةٌ عن جُدرٍ مُتصدِّعةٍ من الدرجة الأولى، وعناكب ترمق الواقفين بجانب المدرسة، وجرذانٌ تتقافز فوق السور، وقططٌ سائبة تجوب الفناء، وتستريح في (مقصف) المدرسة.

تدوس كل معلّمة بكعبها المخمليّ بلاط المدرسة المتهشّم، ويلجْنَ وُلُوجَ المساجين إلى السجون المظلمة.

في غرفة المعلّمات آمالٌ مقذوفة في تابوت اليأس، وهموم ترفرف على رأس كل واحدة منهنَّ، وشكاوى غصَّ بها حلق جهاز الفاكس المهترئ، مبعوثة للمسؤولين بطلب الشفاعة في النقل إلى مقرِّ سكن كل واحدة منهنَّ، وأوراق مكدَّسةٌ من يأس العمل، وزهرة شبابهنَّ الأنثويّ تذبل يوماً بعد يوم.

تدخل مديرة المدرسة عابسة الوجه، محدِّقةً في وجه كل واحدة منهن:

ـ الاستمارات وصلت. .

تقفز منال كحمامةٍ رفعت جناحيها للولوج جوف السماء:

ـ حقاً. . !!

تردف سمر:

ـ لعلّه الفَرَج، لعلّه الفَرَج. .

بدأت كل واحدة بتعبئة الاستمارة الخاصة بها. . هدوءٌ يملأ غرفة المعلّمات. . العناكب في سقف المدرسة تجمهرت على هذا الحدث العجيب، وكل معلِّمة تكتب الرغبات، والأمنيات، والتوَقُّعات، وكلها معقودة بحبل الأمل الضعيف.

وبعد زمن قصير جمعت مديرة المدرسة استمارات النقل المزعوم لدى وزارة التربية، ليتمَّ إدخالها آليا في جهاز الحاسوب العتيق، الذي امتلأ جوفه بالأتربة، ومن ثم تُبعث إلى مَقرّ الإدارة في مدينة أخرى تبعد عن المدرسة المنسيّة ١٨٠ كيلومتراً.

كالعادة تنطلق سَيَّارة (الفان) عائدةً بهنَّ إلى المدينة ٢٠٠ كيلومتر أيضاً ليكون المجموع ٤٠٠ كيلومتر يومياً تقطعها هؤلاء النسوة ذهاباً وإياباً، وخفافيش القلق في كل مرَّة تُشيعهنَّ إلى حيث المجهول.

يرنُّ هاتف سمر، ليشعَّ اسم أمّها المتصلة عبر الشاشة:

أهلا أُمّي. .

هل بقي الكثير يا ابنتي..؟

نحن للتو تحرَّكنا من المدرسة..

هل ستتأخرين كما العادة يا ابنتي..؟

مَطَّت شفتيها قليلاً ثم تأفّفت بشدّة ثم أجابت:

وهل هناك غير هذه الحكاية التي تمارسنا كل يوم!..

تَصِلِين على خير بإذن الله..

إن شاء الله..

بينما تجلس إلى يسارها زميلتها «منال» وقد تصاعد شخيرها الهادئ وهي تَغُطُّ في النوم ليقصر عليها الطريق.

* * *

بعد أن أحكم الظلام قبضته على المدينة، وبعد أن أتمَّ الإمام تسليمته لصلاة العشاء، شدا صوت هاتف المعلّمة «منال» الملقى على سريرها الوردي، بينما كانت هي خاشعة في صلاتها حَتّى ارتفع صوته، وأفسد خشوعها، فما إن أتَمَّت الصلاة حَتّى خَرَس الصوت، نظرت إلى شاشة الهاتف فإذا «مكالمة لم يرد عليها»، فتحت فإذا المتصل زميلتها «سمر»، عاودت الاتصال بها:

ألو.. أهلا سمر، ما الأمر..؟!

لقد اتصلت بكِ قبل ثوانٍ قليلة أين كنتِ..؟

أصلِّي، وبالكاد استطعت الخشوع في صلاتي من صوت الهاتف. .

لدي موضوع مهم، مهم، مهم. .!!

سمر، لقد قلقت، ما الخبر. .؟!

هنالك صديق لأخي أحمد عَرَض علينا عرضاً مغرياً. .

وما العرض. .؟

وعدنا بأنه سيتسبّب في نقلي إلى المدرسة التي أرغب النقل إليها وقد تكون بجانب منزلنا. .!!

معقوووووول. .!!!!

نعم، هل ترغبين في الدخول في هذا العرض؟

لكن كيف بإمكانه فعل هذا. .؟

قال لأخي: ادفعوا لي ٢٠ ألف ريال واختاروا المدرسة التي تريدون النقل إليها. .

لاااااا، احذري يا سمر هذه رشوة. .!!

من قال هذا. .؟!. . هذه أتعاب، ومن حقّه طلبها. .

لقد سمعت بهذا الكلام من أناس كُثُر، لكن هناك فتوى بتحريم ذلك لأنها رشوة. .

إذن كما تريدين، أما أنا فقبلت العرض وأنتظر الخبر، إلى اللقاء. .

مع السلامة..

استلقت «منال» على أريكةٍ في زاوية غرفتها الصغيرة، أخذت الأفكار تذهب بها وتأتي:

ـ هل أفعل كما فعلت «سمر»..؟!.. هل ارتكب جرم الرشوة؟!.. إنها فرصة العمر ليتحقق لي حُلُمُ النقل إلى مدينتي!!!.. ما أكثر الظلم في هذه الأرض!!.. الرشوة حرام.. لكنها أتعاب ليست رشوة، أليس هذا هو الصحيح..؟!

وبينما هي تشاور نفسها وتحاورها، بدأت أجفانها تُطبق على عينيها بهدوء.

وقبل أن يدغدغ أذان الفجر حُلُمَ المدينة، رنَّ المنبّه كالعادة لتستيقظ «منال» وتجد نفسها كما عهدتها البارحة ملقاة على الأريكة، وقد سبحت في النوم بلا شعور، نهضت بتكاسل، دَلَفت باب الخلاء، نظرت في المرآة، وأخذت تحادث نفسها:

«هذا الوجه الأنثوي الجميل، كُتب عليه العناء والمشقَّة، غيري يعمل بالقرب من منزله أو على الأقل في نفس مدينة سكنه، ويحمل تخصُّصاً أقل من تخصُّصي أهمية ومكانة، بينما أنا أدرّس مادة الأنجليزي التي يهرب من دارستها بنات جيلي، ويُقذف بي إلى أبعد ما يُتَوَقَّع».

فتحت صنبور الماء، وأدخلت يديها الناعمتين تحته، ثم

دعكت وجهها بالماء والصابون معاً، ورفعت رأسها وشاهدت في المرآة خيوط الماء والصابون، وهي تتسابق على خَدَّيها قاصدةً ذقنها الصغير، مُعلنةً الرحيل إلى قعر المغسلة، ثم حادثت نفسها مَرَّة أخرى:

«طليقي، أعرف أنك تحبني، وأعرف أنك ما زلت تعاود الكرّة والكرّة لإرجاعي، لكنك طلّقتني لجرمٍ لم ارتكبته أنا وطفليّ، طلّقتني لأن نقلي لم يتحقق لأكثر من سبع سنوات من تعييني في تلك المنطقة المهجورة، باسم التعليم وأهله».

دخلت إلى غرفتها مرة أخرى، أخذت في ارتداء ملابسها، ثم اتجهت لرب السماوات والأرض مؤدِّية صلاة الفجر.

وَقَفَت بعدها قبالة المرآة الواقعة في أول الغرفة، ثم أشرعت في وضع أدوات التجميل الخفيفة على وجهها البدريّ، وهي تقول لنفسها:

ـ «لمن تضعين هذا الكحل يا منال..؟!.. لزوجٍ يَئِسَ من نقلي إليه، وجعل من الطلاق قراراً زاد به من حمولة الظلم التي أُقلُّها كل يوم، أم لخاطبٍ جديد كلما عَلِمَ بمأساتي خَرَجَ ولم يعاود المجيء هرباً من الدخول في واقعي التعيس»..؟!

أَخَذَت نَفَسَاً عميقاً ثم مَجَّتهُ في فضاء الغرفة، وهَمَّت بلبس عباءتها وطرحتها.

دقائق حَتّى أتى صوت مزمار السيَّارة (الفان) من الشارع الذي يُطلُّ عليه شباكها الحزين، فَتَحَت الشبَّاك قليلاً، نظرت ببؤس، تأكدت أنه هو ثم نزلت من غرفتها تمشي بخطواتٍ تَعِبة، صعدت السَيَّارة، فإذا بزميلتها «سمر» تبادرها قائلة:

صباح الخير..

صباح النور..

تأخرتِ في الخروج قليلاً..

آسفة لقد أخذ وقت الاستعداد مني بعض الوقت..

هل نمتِ جيداً؟

نعم، ولله الحمد.

* * *

أخذت الأسابيع تَجُرُّ بعضها البعض، والأيام تتدافع بالأكتاف، وجميع المعلّمات في انتظار ناريٍّ للنتيجة، وكما هي منال.. ما أن يرمي الليل عباءته، حَتّى تكون قد سَبَقَت العصافير قبل تغريدها، لاستقبال خيوط الفجر النافذة من نافذة السماء، تسبق الوقت لتكون في ركب السائرات إلى التدريس.

تقف على قدمٍ منهكة حَتّى تَقرعُ الظَّهيرة جرس المغادرة، وما أن تصل إلى منزلها المستأجر، حَتّى تُمَرِّغَ جسدها المنهدم في وَحْلِ همومها إلى الصباح.

زميلتها «مريم» التي أتى تعيينها في إحدى المدن التي تبعدُ عن مدينتها ١٤٠٠ كيلومتر، رفضت هذا الإجحاف، وفَضَّلَت أن تبقى رَبَّة بيت.

في إحدى الليالي الحالكة أتى صوت «منال» مسكوباً في سمع مريم فقالت:

ما أجمل هذا الصوت..!!

أنتِ الأجمل..

هاه، ما أخبار نتيجة النقل؟..

أعلنوا اليوم أنها سَتُعلن غداً صباحاً..

جميل، جميل..

ليس هَمُّ إعلان الموعد أكبر من هَمِّ النتيجة..

ستكون النتيجة خير..

سبع سنوات يا مريم، وأنا أجاهد هذا الطريق المخيف..

هانت يا أُخَيّتي هانت.. أنا متفائلة هذه المرَّة..

حَتّى لو كُتب لي نصيب في النقل، سأبقى مُطلّقة بعيدة عن أبنائي، وكله بسبب هذا النظام الجائر..

تفاءلي بالخير، لا تكوني بهذا التشاؤم..

أختي مريم، خدمة الإنترنت مُعطَّلة لدي من يومين، هل

بالإمكان أن تكوني على اتصال بي غداً صباحاً لإعلامي بالنتيجة؟ . .

أنا في الخدمة، فقط ابعثي لي برقم سجلك على هاتفي، حَتّى أتمكَّن من المتابعة غداً. .

اتفقنا إذن، استودعك الله. .

في أمان الله. .

بعد دقائق غَرّد هاتف «منال»، نظرت إليه فإذا المتصلة هي زميلتها «وضحى»، فبادرت بالرد عليها قائلة:

ـ أهلا يا وضحى. .

ـ كيف حالك يا منال؟ . .

ـ الحمد لله، ها أنا أنتظر نتيجة النقل ومتفائلة بعض الشيء. .

ـ ألم تستجيبي لعرض سمر. . ؟

ـ كلا، الرشوة حرام، وكبيرة من كبائر الذنوب، وأنا أخاف من الشروع في مثل هذه الأمور. .

ـ إذن ستبقين على هذه الحال سبع سنوات أخرى، وأنتِ ذاهبة عائدة. .

ـ لكن يا وضحى. . . !!

ـ أنا عن نفسي تَمَكّنت من معرفة مكان نقلي مقدماً. .

ـ دفعتِ رشوة. . !!!

ـ لا تقولي رشوة، هذه أتعاب، أنتظر إعلان النتيجة فقط حَتّى ارتاح. .

ـ حرام يا وضحى حـ. . . !!

ـ يا منال حَتّى لو كان حراماً فلا لوم علينا، النظام ظالم ومتجبّر، ولا نشمُّ فيه للعدل رائحةً البتَّة، والمسؤولون لا يهمهم الأمر، وأنا امرأة قابعة وحدي في بيتٍ شعبيٍّ متهالك في نفس مقرّ عملي، تاركةً أهلي وأخوتي على بُعد ٦٠٠ كيلومتر، والأخطار تدور حولي، وسُبل العيش في هذه القرى ضعيفة جداً، وقد خسرت فرصة الزواج أكثر من مَرّة بسبب هذا النقل. .

ـ هل هذا قرار أخير يا وضحى؟!. .

ـ نعم أخير، ولا رجعة فيه، تعلمين أن الوزارة لم تُخَصّص لنا بدل هذه المعاناة التي قصمت ظهورنا، مخاطر الطريق من المفترض أن يُصرف لنا بدل عنها، والسكن الذي نستأجره من المفروض أن يصرف لنا أيضاً بدل عنه، كما ترين الظلم بعينه، أنا وأنتِ مَشقّتنا وتعبنا متساويان مع زميلاتنا اللاتي يعملن بجوار منازلهنَّ، واللاتي يعملن في نفس المدينة. .

ـ لكن يا وضحى أناااا. .

ـ إنها فرصة العمر يا بلهاء، لا تُضيّعيها بالمثاليات والمبادئ العتيقة، وداعاً أراكِ غداً على خير. .

ـ على خير إن شاء الله، وادعا. .

وفي صبيحة يوم السبت، وفي منتصف الطريق بالتحديد، ثمَّة سيارة (فان) التهمتها إحدى الشاحنات، وفي مكانٍ ما، في نفس الزمن تدخل «مريم» فتاة في عامها السادس والعشرين على الشبكة العنكبوتية، وتلقّمها الرقم الخاص بصديقتها «منال» ليرتسم أمام عينيها عبارة:

(لم تنقلي). .

وفي نفس اللحظة في مكانٍ بعيد عن المدينة، وفي باطن سَيَّارة (فان)، وتحت وطأة إحدى الشاحنات، تصعد أنفاس «منال» إلى السماء مودعةً ظلماً ذهبتْ ضحيتَه.

وحين أطلقت شمس الأحد، ثاني أيام الأسبوع، شعاعها على الدنيا، ظهر على صفحات أغلب الصحف المحلية خبرٌ هزَّ أركان المجتمع:

(وفاة سبع معلّمات وسائقهن على أحد الطرق البريّة صباح أمس السبت).

سَرَت هذه الحادثة في المجتمع مسرى النار في الهشيم، تلقفتها أفواه الناس، وأخذ يَلُوكُهَا المجتمع بدهشة.

المسؤولون القابعون على كراسي المسؤولية في الجهات المعنيَّة يُردّدون:

النظام لا يسمح، النظام لا يسمح..

بينما على الشاشة المقابلة لمريم المخنوقة بالبكاء، ما زالت عبارة (لم تنقلي) مُعَلَّقة كأنها مشنوقة.

هناك في مكانٍ ما.. روح منال، وهناك في مكان آخر جُثَّتُها في برزخ التعليم.

ماتت منال.. مع أنها سُقيت كؤوس الموت قبل موتها الحقيقي.. كُفِّن جسدها الغض، إنها الأقدار.. لكن السبب تُرك دون محاسبة.. لم يعد لنا أن نتخيّل، لأنه مُشاهَدٌ على طرقنا السريعة، ومُسطَّرٌ خبره في صبيحة كل يوم:

«وفاة سبع معلّمات على الطريق المؤدي إلى محافظة ....»

«حادث مروري راح ضحيته أربع مُعلّمات وسائقهن»

.. إلهي كم يستمتع بعضنا بهلاك بعض!!.

(١٠)

ـ التاريخ : كهلٌ سقط حاجباه على عينيه فهو لا يعلم إلا ما مضى من أحداث العصور السالفة .

ـ المال : عَرَضٌ من الدُّنيا يطلبه الطامع الدنيء فوق الحاجة ، ويطلبه العزيز الكريم حسب الحاجة .

ماجد سليمان

لمحتُ جُثمان منال مُسجًّى في غرفة الجنائز القريبة من محراب الإمام، والمعزُّون يغمغمون بما لا يُفهم . . شاهدت وُجوهاً مُعفَّرةً بالحزن والغضب معاً .

بعد أداء الفريضة حُمِلَ جثمانها وَوُضِع أمام الإمام لنصلّي

عليه صلاة الميت . . كُنت أتأمَّل جثمانها الطاهر ببكاءٍ داخلي . . كان نحيبي لا ينقطع من بين ضلوعي . . تلك الملاك هي الآن في ظُلمة الكفن قبل ظُلمة اللحد . . الكفن هو آخر الأصحاب من دُنيا المحن . . تلك الملاك جَسدٌ بلا حِراك . . راحت لَقَطاتُها

الطفوليّة تنثر صوتها وصورتها فوق بصري الضعيف.. ذكريات الصِغَر والحي كأنها لظًى يمتدُّ في مُخيِّلتي..

بعد أن صُلِّي عليها، حُمِلت فوق الأعناق، أيدٍ تحمل نعشها الخشبيّ ذا الطلاء الأصفر الداكن.. كُنتُ راغباً بأن تحمل يداي نعشها مع أقاربها لكن أموراً كثيرة تمنع ذلك، فكانت عينا قلبي قبل عيناي تلاحقان الجُثمان حَتّى رحلوا به إلى ترابه ومرقده.

لم أجد طريقة مناسبة للبكاء، فكل الأوقات تُحَتِّمُ أن أذرف الدمع من عروقي لا من تحت أجفاني المترهِّلَة من بُكاء الدهر وصُرُوفه.

من أين أبدأ مسح غبار الذكريات يا منال؟.. كيف سأرثيكِ؟.. من طفولتنا.. أم من مآتمنا؟.. أتدرين؟.. سأرثيهما دون توقّف، فسُحقاً للقلب الذي لا يُذوِّبُ لفراقكِ الدنيا.

عُدت إلى حَيّنا القديم أسحب خلفي جنازة الإرهاق والتعب، كانت الصدفة تعرض أصحابها أمامي دون ترتيب لمظالمهم السوداء، إنه «عفتان» تاجر القماش، وجار السوء الساكن في الحي المجاور لنا، صَدفته وهو يهذي دون توقّف، جسدٌ مشدودٌ إلى جهنم بذنوبه، شابكاً أصابعه ذات الجلد المتجعّد من وَقع الزمان عليه، وشارداً بعينين احمرّتا من فجيعةٍ طوَّقته.. شاهدته يشتم كل شيءٍ في طريقة بعد أن خسر ثروته، وسَمعتُهُ حين قال لنفسه وهو يركل أطفال الريح ويجلد آثار الدمع:

ما أمرَّ الفقر بعد الغِنَى . .

لقد كان مَنظَرُهُ مُرضياً أكثر مما كان محزناً، يا كم حُرِمت أفواه لُقمة عشيها قهراً بسببه، ويا كم دُهِسَت نساء تحت أقدام أزواجهن المعتوهين بسببه، ويا كم قُذِفَ بأبناء خارج منازل أهليهم ظلماً بسببه، ويا كم التهم السوط ظهور أناس وأوسعهم ضرباً بلا ذنب بسببه.

ليت لديَّ الجسارة وأتحامل على نفسي، وأركب الحماقة، لأبصق في وجهه القبيح، الذي كان يبتسم بخبث في الوجوه بأسنان صفراء ذات رائحة نتنة.

ما زِلتُ حَتَّى وأنا أتشفَّى من منظره أشعر بطعم الخديعة . . إحساسي بالخديعة مَن ينتشل نصله من داخلي، ويريق دمي ويريحني من البحث عن إجابته؟.

سؤال يتدحرج في رأسي قائلاً: «من أين يأتي صوت الخديعة . . ؟». لأُسند ظهري إلى جدار الحيرة كَاتِمَاً كُرَةً من النَفَسِ المغليّ خلف أسوار الضلوع، ليعود نصل السؤال مرةً أخرى مقتحماً تساؤلي عنه، لينتثر دم الا إجابة على سؤالٍ يسري في هشيم الحقيقة، ويأكل من جسد الواقع وأعيننا تنكر مشاهدته، وتغمض أجفانها المكذِّبة للبرهان.

راحت الأيام تنزع رداء ساعاتها سريعاً . . تَدرَّجت في العلاقات

الآثمة دون ترفّق، لم تتقلَّص ذنوبي بعكس بقيّة البشر الذين يغسلونها بالتوبة والاستغفار، عدت من جديد لأركض خلف ركب «نورانية». . إنها الحبُّ المحرَّم، والعلاقة الشيطانية. . هي التفّاحة المحرَّمة ورحلة الضوء الشحيح في سماء حياتي.

سؤالٌ يرتطم بصدري: لماذا أنا متمرّدٌ على يباسي؟!. .

رحتُ أعقد معها وعد المشتاق في إحدى الأماكن العائلية، انغرستُ في كُرسيٍّ مُخمليٍّ احترق شوقاً للحديث مع أنثى، كان المكان خالياً إلا من انتظاري لها. . غارقٌ في عَرَق حَيائي ولهفتي، تماثلت للقاء كما يجب، حاملاً يُتماً ما زال طامساً إحساسي كإنسان.

جَلستُ أُحدِّقُ في الشارع من خلال الشُبَّاك الزجاجيّ المتّسخ، وأخيراً كانت سيَّارة الأجرة الصغيرة تقف قرب المكان لتنزل بائعة الغرام في حُلَّة الأميرات. . اقتربتْ من الباب، دَخَلتْ عبر الممرّ العام للعوائل. . رَنَّة كعبها تُغري ضلوع الأرض، نبض الرخام مُتيمٌ من تحتها، قرع كعبها كأنه في عروقي، رائحة عطرها يسبِقُها إلى كرسيها. . إنني لا أعرف دفء الملذّات، تزايدت حَبَّات العَرَق على جبيني، فالشوق لاذع هذه اللحظة. . أزاحت بأناملها الفضيّة ستارة الباب، لتطلَّ عليَّ كالبدر بل أشدّ جمالاً. . إنها البهاء المنثور. . إنها الغواية التي لا تنضب. . إنها الرائحة المحرّمة. .

«كيف أنت؟» . .

حَلَّقتْ من بين شفتيها اللتين تهمسان من خلف طرحتها الشَفَّافة، بعد أن سبقتها ابتسامة ناعمة. . أحسست بدفءٍ شيطاني، فأيقظ سؤالها عن حالي رُكام قلبي وبَعثَرَ شهقات صدري. . اعتدلت في جلستي واضعاً يَدَاي على الطاولة، فراحت أصابعها النديّة تُخَربِشُ في صفحة كَفِّي وَتَسرِدُ شَفَتاها شوقها الكاذب لي، وأنا مغموسٌ في بِركة البُكاءِ على نفسي. .

وبعد أقل من الساعة تحرَّك جذعها الرشيق، كأنها مُتلحِّفة بالشمس، وتَرَكَت عطرها يهدهدني والمكان، وذابت في البعاد، فلا بُدَّ أن أُأَرجح نفسي لتستريح ولو لقليل شحيح، فانتصبتُ لغوايتي منشداً عذابي، كانت عيناي وحدهما تتكلمان وتصرخان.

التهمتني الشوارع ذات الأنوار الضئيلة عائداً إلى ضياعي ورغباتي الملوّنة. . وحيداً أمشط القاع بخطواتي المتردِّدة. . راحت أقدامي تَدُوسُ غَضَب الطريق، ضَربتُ بركبتيّ تراب الأرض محاولاً إيلاج أصابعي السمراء ذات الأظافر الطويلة جدار صدري، راغباً في اقتلاع قلبي من مكانه العصيّ، كُلُّ أملٍ نُزِعَ من محيطي دون رجعة، ولم أرث من ظروفي غير دمعٍ أحمرَ يَنزُّ من ثُقب روحي، فآهٍ يا مجتمعاً يراني بلا مغفرة.

تَيَبّس شبابي، وأرخى الحزن وِشَاحَهُ على قلبي، وصَبَّ نهره

في شراييني، وانطفأ فتيل سراج أيامي، وذابت شمعةٌ أضاءت دربي، ورافقت ظلمة لياليَّ، وجدت نفسي فجأة، وحيداً أُلوّح لرفيقٍ غاب..

أتأمل جبين الأمس، إنها الأيام.. سُفُني المبحرة نحو شواطئ الهلاك، إنها حياتي التي دَنَّسها الحزن ليحيلني إلى خرقةٍ بالية.

أسير أُحدِّث نفسي، وأرسم خطوطاً جنائزية في الهواء.. فليس لي أيادٍ مُتَّصلةٍ بسماء الغرام.. مجتمعي.. وَسطٌ ينزف.. لهاث البشر وأنفاسهم. لقد تَلَطَّت الشوارع بصخبهم وعنفهم واضطراب أفعالهم.

هكذا كانت ذكرياتنا تعبر أَزقّة الرياض وممرَّاتها الضيّقة، وتربُضُ في زوايا الأمكنة المخلوعة من الحياة.. صارت شاهداً أبديّاً علينا، لم نجد ممحاةً لأوجاعنا غير موتٍ يتَعقَّبُنا ليموت بعضنا غدراً، وَيُشفِق بعضنا على نفسه حَتَّى يغرق كَمَداً وحيرةً لا تنقطع، فنمسح بمنديل الصبر دمعة اليأس، لنُعلَّقَ صُوراً باهتةً مثلما عِشنا حياةً باهتة..

.. وتمضي الرياض تحدو ذكرياتنا دون تَوَقُّف..

انتهت

مايو ٢٠١٠م



الكاتب في سطور

ـ ماجد سليمان.

ـ شاعر وروائي ورسَّام.

ـ أشرف على إعداد صفحة للشعر الفصيح بمجلة بروز السعودية عام ٢٠٠٦م.

ـ أشرف على إعداد ملف التراث في مجلة وُجوه الكويتية عام ٢٠٠٨م.

ـ عضو في رابطة أدباء الشام.

صَدَر له:

ـ صهيل القوافي. سِير وقصائد تراثية.

ـ نزف الشعراء. أبيات ونوادر تراثية.

ـ شعراء من عائلتي. مذكرة تحدَّث فيها عن شعراء عائلته القدماء من جده لأبيه حتى جده الثالث.